ناجیة مرانی

بین

تراشین

دار
الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات
(١٩٧)

ناجية مراني

الحب بين تراثين

التروبادورز الفرنسيون والعشاق العذريون

الفصل الأول

خلفية تاريخية

التروبادورز شعراء عشاق غنوا الحب أغاني لم تكن اوربا قد سمعت بمثلها من قبلهم . كان ذلك لأول مرة في مقاطعة بروفنس الفرنسية المتاخمة للحدود الاسبانية ، وفي القرن الحادي عشر للميلاد ، حيث شاع نوع من شعر الحب أو الغزل ، كما نسميه ، في العربية . هذا الشعر كان غريبا عن الفكر الاوربي انذاك ، غريبا بأوزانه ، وغريبا بالافكار والمفاهيم التي احتواها وعبر عنها . وقد اطلق على هذا النوع من الشعر البروفنسي Provençal نسبة الى مكان نشوئه ،وعرف الشعراء الذين اوجدوا هذه المدرسة الشعرية بالتروبادورز Troubadours . وأول تروبادور عرفه تاريخ الادب الاوربي هو وليم أوغليوم التاسع كونت بواتيه ١٠٧١ ـ ١١٢٦ ، وتبعه اخرون منهم سركامون ، جاسكون ، ماركابرو ، جوفري رودال ، وبرنارد دي فانتادور ، الذي تعتبر اشعاره النموذج المكتمل لهذه المدرسة ، ومنهم ارنوت دانيال وارنوت دي مارويل واخرون .

أما الحب الذي عكسته اشعار التروبادورز فقد عرف باسم خاص تمييزا له عما سواه ، فقيل انه حب فروسي أو Courtly Love وأخذ الشعراء يغنون مثل هذا الحب ويكتبون وفقاً للنماذج التي كتبها التروبادورز وامتدت أبعاد هذه المدرسة مكانا وزمانا . وكانت الينور حفيدة التروبادور الاول وليم التاسع ، ذات أثر فعال في تشجيع هذه المدرسة ونشر مفاهيمها . فقد تزوجت هذه المرأة من لويس السابع ملك فرنسا سنة ١١٣٧ ، وبقيت ملكة فرنسا لمدة خمسة عشر عاما ، ثم طلقت منه فتزوجت هنري الثاني ملك انكلترا . وكان للتروبادورز على عهدها مركز كبير في البلاط الملكي في كلتا الدولتين . ويذكر ان الينور نفسها كانت مصدر الهام للتروبادور برنارد دي فانتادور ، وهو يمثل

قمة الشعر البروفنسي كما قلنا . اما ماريا دي فرانس ، ابنة الينور ، فقد كانت هي الاخرى من اكبر انصار المدرسة ، وقد شجعت الشاعر الفرنسي كراتين دي ترويز على تأليف حكاية لانسوليت ، تلك الحكاية التي تعكس مفاهيم التروبادورز في الحب . وانتشرت تلك المفاهيم فشملت معظم اقطار القارة الاوربية انذاك . وظهرت في المانيا حكاية ترستان وأيزولت . ونظم الشاعر الايطالي بترارك أجمل أغانيه في حب لورا . وكتب دانتي الكوميديا الالهية ، فكانت بياتريس ملهمة الشاعر على هذه الارض ، ودليله في مجاهل السماء . ثم كتب الشاعر الانكليزي جوسر في القرن الرابع عشر للميلاد حكايته الشعرية ترويلس وكرسيدا ، وضمنها مفاهيم الحب ذاته ، الحب الذي غناه التروبادورز في اشعارهم .

لشعر التروبادورز أهمية عظمى في تاريخ الادب الاوربي ، اذ يعتقد النقاد والباحثون المعاصرون ان الآراء والفكر التي عبر عنها هذا الشعر كان لها أثر كبير في تكوين خلفية الادب الاوربي طيلة القرون التسعة الماضية . هذا من الناحية الادبية ، اما من الناحية الاجتماعية ، فان هؤلاء النقاد والمتخصصين يعترفون بان الآراء والمثل التي جاء بها التروبادورز في اشعارهم تكوّن الحجر الاساس في اصول اللياقة والاداب التي تعرفها اوربا في الوقت الحاضر ، حتى ان فكرة تقديم المرأة واحترامها السائدة في المجتمعات الغربية الحديثة لم تكن الا بتأثير ما أتى به التروبادورز في اشعارهم ، اذ انها الآراء والمفاهيم التي خلقت اوربا الحديثة (١) .

لطرافة وغرابة الآراء التي جاء بها التروبادورز من جهة ، وللأثر الكبير الذي تركه شعرهم في الفكر الاوربي من جهة اخرى ، قام عدد

(١) C. S. Lewis, The Allegory of Love, 2-3.
I. Singer, The Nature of Love, 375.

كبير من ادباء الغرب ومفكريه بتحليل هذا الشعر والتنقيب عن أصله ومورده بين الافكار التي كانت سائدة في زمانه وفي الازمنة التي سبقته • فمنهم من عاد به الى الاغريق ، ومنهم من أومأ الى الشاعر الروماني اوفد Ovid ، وفريق ذكر المسيحية ، واخرون تحدثوا عن أثر الادب العربي في تكوين ذلك الشعر ، ولكن رأياً واحداً لم يثبت حتى الان ، وفندت هده النظرية أو تلك ، لسبب أو آخر(٢) •

الغرض من هذا البحث

ان الغرض الاساس من هذا البحث هو دعم النظرية القائلة ان التروبادورز متأثرون بالادب العربي ، وذلك بعرض أوجه التشابه والتلاقي بين آرائهم وآراء الشعراء العرب في الحب كما وردت تلك الآراء والافكار في شعر الطرفين من جهة ، وفي ما أورده الكتاب والفلاسفة عن الحب في كل من العالمين العربي والاوربي انذاك ، من جهة اخرى • وبما ان التشابه في الفكر والاراء وحده لا يحدد أصل تلك الفكر وموردها ، اذ انه لا يعدو ان يكون بنظر البعض ضربا من المصادفة وتوارد الخواطر ، لا سيما في موضوع كوني كموضوع الحب ، لذلك وجب ان ندعم التشابه الذي نسعى لاثباته بحقائق أخرى لا تقل عنه خطورة ، وأهم تلك الحقائق واجدرها بالاعتبار ما يلي :

أ ـ غربة الآراء الواردة في شعر التروبادورز عن التراث الاوربي حتى القرن الحادي عشر الميلادي من جهة ، ووجودها كجزء لا يتجزأ من الادب العربي قبل ذلك التاريخ بما يزيد عن أربعة قرون ، من جهة أخرى •

---

(٢) انظر خلاصة الابحاث في هذا الموضوع في :
T. Silverstein, "Andreas, Plato, and the Arabs", Modern Philology, XLII (1949-50), 117-126.

وانظر المصادر التي ستلي تباعا وهي احدث •

ب ـ بحث الطرق والوسائل التي تسربت بها تلك الافكار من العرب الى أوربا ، ولا سيما خلال الوجود العربي في القارة الاوربية •

غربة فكر التروبادورز عن أوربا

لقد أيد عدد كبير من المتخصصين الاوربيين غربة آراء التروبادورز عن التراث الاوربي ، فقد كتب شارلس لويس ما يلي :

ان الحب قد يكون ـ في ظروف خاصة ـ عاطفة نبيلة وتحمل على النبل • ذلك مبدأ نقبله في وقتنا الحاضر • أما اذا تصورنا شرح مثل هـذا المبدأ لأرسطو ، أو فرجيل ، أو القديس بـول ، أو لمؤلف بيوولف ، حينذاك فقط نحس ان ذلك المبدأ أبعد ما يكون عن طبيعة الاشـياء(٣) •

وينظر موريس فالينسي الى حب التروبادورز نظرة مشابهة لنظرة صاحبه الكاتب الانكليزي لويس ، اذ يقول :

ان المذهب الذي اتبعه التروبادورز في اشعارهم في القرن الثاني عشر للميلاد يختلف اختـلافا جوهريا عما أفصحت عنه تلك النماذج البدائية من شعر الحب الواردة في تراثنا • والغريب ان شعر التروبادورز في تمجيد المرأة وجد وازدهر في مجتمع ينظر الى المرأة كمخلوق ناقص العقـل ومسبب للضر والقلق(٤) •

ويحدثنا الاديب الفرنسي دنيس دي روجمنت عن بدعتين جديدتين ظهرتا في أوربا لاول مرة خلال شـعر التروبادورز ، ويتساءل الكاتب

---

(٣) Lewis, Op. Cit., 3.
(٤) M. Valency, In Praise of Love, 1.

المذكور عن مصدر هاتين البدعتين ، أهبطتا على أوربا من السماء ! أما البدعتان فهما :

... صورة للمرأة مغايرة تماما لما عهدناه في تراثنا ـ امرأة تبدو وكأنها أرفع من الرجل ، وكأنها هدفه الاعلى المنشود . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى : هذا الشعر : جديد ، الا انه متطور عميق ومهذب ، شعر غير معروف لدى القدامى(٥) .

ويتفق سنجر مع دنيس روجمنت في تعيين مواطن الغربة في شعر التروبادورز وفي حبهم . فيذكر ان أغرب ما في ذلك الشعر هو اتخاذه المرأة هدفا ساميا يحق للرجل تمجيده وبذل النفس والنفيس في سبيله . يقول سنجر :

كان المجتمع الاغريقي يعتبر الحب ظاهرة رجالية فقط ، علاقة رجل برجل . أما علاقة الرجل بالمرأة فلا تعدو الجانب الجسدي ، وما كانت يوما تأملا روحيا . قد تصل تلك العلاقة الى درجة من الانسجام والتهذيب ، ولكنها ما كانت يوما محلا للتبجيل ، ولا شيء لدى الاغريق أجدر بالاحتقار والاشمئزاز من منظر رجل يفني نفسه في سبيل الحصول على امرأة(٦) .

ثم يعود سنجر فينفي أية علاقة تشابه بين التروبادورز وبين الشاعر الروماني اوفد ، لان الاخير على رأي الكاتب ـ غريب كل الغربة عن التروبادورز ، فهدفهم في الحب نبيل خلاق ، بينما هدف اوفد محدود

---

(٥) D. Rougemont, Passion and Society, 76.

(٦) Singer, Op. Cit., 51-52.

الافق . ويستطرد سنجر قائلا : ان الشاعر الانكليزي جوسر يؤكد ان الحب مشروع خطير ، الا ان خطورة الحب وجديته أمران مخجلان بنظر اوفد[٧] .

اما نظرة المسيحية الى حب التروبادورز فلم تكن بخير مما ذكره الكتاب الذين أشرنا اليهم سابقا . فالمرأة التي يمجدها التروبادورز هي بنظر المسيحية أم الخطيئة ، وهي وراء حرمان آدم من الجنة . لذلك يؤكد الاب الاسكندر دنومي ان القانون الذي ابتدعه التروبادورز في الحب والذي كتب بموجبه الشاعر الانكليزي جوسر قصته الشهيرة (ترويلس وكرسيدا) ، ذلك القانون الاخلاقي بعيد كل البعد عن التعاليم المسيحية التي تعتبر مثل هذا الحب كفرا ، وقد لعنته الكنيسة قبل ان يكتب جوسر قصته بمئات السنين[٨] .

ان العرض السريع لآراء الكتاب والنقاد الغربيين في حب التروبادورز ليعطينا الدليل الواضح على ان الحب الذي عبر عنه هؤلاء الشعراء في أغانيهم كان غريبا كل الغربة عما هو معهود في التراث الاوربي ، الاغريقي منه والروماني والمسيحي . فلا يسع الباحث ، والحالة هذه ، الا التطلع الى مصادر اخرى يمكن ان تكون وراء التروبادورز . واقرب تلك المصادر واهمها بالنسبة لبروفنس الفرنسية هي جارتها الاندلس العربية . وسيكون ذلك موضوع حديثنا في الصفحات القادمة .

التروبادورز والعشاق العرب

يعتبر المفكرون الاوربيون المعاصرون أشعار التروبادورز وما تضمنته من آراء واتجاهات في موضوع الحب في القرن الحادي عشر

---

(٧) Ibid., 147.

(٨) A. Denomy, "The Two Moralities of Chaucer's Troilus and Crisyde", 35-46.

للميلاد وما بعده ، بدعة لم يسبق ان عرف التراث الاوربي ما يماثلها • الا ان المطلع على تراثنا العربي يجد ان مثل هذه الآراء والفكـــر واردة في اشعار الغزل التي تشكل جزءا لا يتجزأ من تراثنا العربي • فهناك أشعار وقصص واخبار تروى عن شعراء عشاق في الجاهلية والاسلام ، في العصور الاموي والعباسي والاندلسي • نذكر من هؤلاء الشعراء الذين شهروا بالعشق واقترنت اسماؤهم بأسماء صاحباتهم ، المرقش الاكبر وصاحبته اسماء ، عبدالله بن عجلان وصاحبته هند ، الصمة صاحب ريا ، عروة بن حزام صاحب عفراء ، مجنون ليلى ، جميل بثينة ، كثير عزة ، قيس لبنى ، توبة وصاحبته ليلى الاخيلية ، وغيرهم • وحين ينقضي عهد العذريين ورهطهم ، تستمر آهاتهم وخلجات قلوبهم فتتمازج مع آهات عشاق اخرين كالعباس بن الاحنف في بغداد ٧٥٠ ـ ٨٠٨ للميلاد ، وابن زيدون في الاندلس ١٠٠٣ـ١٠٧١[٩] • اما في اوربا ، فان اقدم تروبادور وجدت له اشعار مكتوبة هو وليم اوغليوم التاســع كونت بواتيه ١٠٧١ـ١١٢٦ للميلاد[١٠] وهو متأخر عن ابن زيـــدون الاندلسي باكثر من نصف قرن ، كما انه متأخر عن العذريين القدامى بما يزيد عن أربعة قرون (جميل بثينة توفي نحو ٧٠١ للميلاد) •

العلاقات بين العرب وأوربا

لقد رأينا أعلاه ان الشواهد تؤكد خلو التراث الاوروبي مما ينسجم مع الفكر البروفنسي ، ووجود ما يشابه ذلك الفكر في تراثنا الادبي العربي ، مما يدعو الى القول بان التروبادورز الفرنسيين متأثرون بالعرب

---

(٩) انظر : الاغاني ، تزيين الاسواق ، الشعر والشعراء ، ديوان جميل بثينة ، ديوان كثيرة عزة ، ديوان مجنون ليلى ، ديوان ذي الرمة ، ديوان العباس ابن الاحنف ، ديوان ابن زيدون ، الزهـرة ، مصارع العشاق ، ومصادر اخرى مذكورة في آخر الكتاب •

(١٠) Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, 1977, 10, 1106 D.

فيما أبدعوه من شعر مهذب يتضمن آراء ومفاهيم جديدة في موضوع الحب . ولا يخفى القاريء ان مثل هذا الاخذ والعطاء كان ، وما زال قائما بين الشعوب يزداد كلما توفرت ظروف مناسبة له . ويكون تسرب الفكر وانتقالها من شعب الى شعب باحدى الوسيلتين الآتيتين ، او بكلتيهما ، وهما :

أ ـ الاتصال المباشر بين الشعوب عن طريق اللقاء والسماع والقراءة ، وذلك يتطلب بالدرجة الاولى معرفة اللغة .

ب ـ الاتصال غير المباشر ، وذلك عن طريق الترجمة . وقد تم انتقال الفكر العربي الى أوربا خلال العصر الوسيط بالطريقتين المذكورتين معا ، كما سنبين ذلك ادناه .

الاتصال المباشر بين العرب وأوربا ونتائجه

لقد حدث اتصال مباشر بين العرب والاوربيين خلال حقبة الوجود العربي على الاراضي الاوربية ، وهي حقبة دامت ثمانية قرون ، ابتداء من عبور القائد طارق بن زياد المضيق المعروف باسمه ، جبل طارق Gibraltar الى اسبانيا سنة ٧١١ للميلاد . وقد تلا ذلك الفتح الاسلامي لمعظم الاراضي الاسبانية ، حيث استقر العرب هناك وأسسوا ملكا ومجدا وحضارة استمرت حتى سقوط غرناطة على أيدي فرديناند وايزابيلا عام ١٤٩٢ للميلاد . كما احتل العرب من جهة اخرى ، معظم جزر البحر المتوسط والشواطيء الايطالية ، ولهم ممتلكات في قلب ايطاليا استمرت ما يزيد على ثلاثة قرون[١١] .

لقد اعترف الاوربيون انفسهم بان اللغة العربية كانت تنتشر في الاقطار المفتوحة بسرعة معجزة ، حتى لكأنها النار في الهشيم ، على حد

---

(١١) انظر : الكامل في التاريخ لابن الاثير ، ٢ : ٤٠٢ـ٤٣٠ .
وانظر : Cambridge Medieval History, Vol. 2, 387.

قولهم[١٢] ، الامر الذي دعا الاساقفة الى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية سنة ٧١٩ للميلاد ، وذلك من أجل الشباب الذي بدأ ينقد لسانه اللاتيني[١٣] . وهناك اكثر من دليل يثبت مدى انتشار اللسان العربي بين المواطنين الاوربيين ، منها الكتاب الذي ألفه اسيدور الاشبيلي في علم الصرف والاشتقاق اللاتيني . لقد سبق تأليف هذا الكتاب دخول العرب الى اسبانيا ، حيث ان مؤلفه عاش ما بين ٥٦٠ـ ٦٣٦ للميلاد . الا ان الكتاب بقي متداولا فيما بعد فجاء مزودا بهوامش عربية تفسر المفردات اللاتينية الواردة في الكتاب[١٤] . ومن أبرز الادلة على انتشار اللغة العربية في أوساط المواطنين الاوربيين الشكوى التي اطلقها اسقف قرطبة ، والتي تدل دلالة واضحة على مدى اهتمام الشباب الاوربي آنذاك وشغفه بالعربية وآدابها وغنائها ، الامر الذي كان يدعوهم الى اهمال ونسيان تراثهم . يقول الفارو عن مواطنيه الاسبان :

> هل يوجد بين المواطنين الامناء من أجهد نفسه كي يتعلم ويفهم الكتاب المقدس أو يقرأ ما كتبه حكماؤنا القدامى ؟ ايوجد بينهم من الهب قلبه حب الكتاب المقدس والانبياء الاوائل ؟ لا تكاد تجد في المجتمع المسيحي واحدا من كل ألف قادرا على كتابة رسالة لاخيه . المسيحيون يجهلون لسانهم ، والعرق اللاتيني لا يفهم لغته . كل شبابنا قد اطلع وتعلم وشغف بالفصاحة العربية . كلهم درسوا وناقشوا الكتب العربية

---

(١٢) H. Gehman, "The Arabic Bible in Spain", 221.

(١٣) M. Hume, The Spanish People, 105.

(١٤) H. Farmer, Historical Facts for the Arabic Musical Influence, 23.

باهتمام وجد ، انهم يشرحون ويعبرون عما في
اللغة العربية من جـلال ، ويتغنون ويترنمون
بالقافية الواحدة ، ويرددون اخر ما انتجه اللسان
العربي من أغان[١٥] .

ان ما ذكره اسقف قرطبة عن شغف الاوربيين بالشعر والغناء ما هو الا جزء من ظاهرة عامة سادت المجتمع الاوربي في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد ، وهي ظاهرة وصفها العرب والاوربيون معـا فجاءت الاوصاف متشابهة متطابقة . فقد اخبرنا تايمون فيدال احـد التروبادورز بان شغف الناس وتهالكهم على الشعر ونظمه وفهمه يكاد ان يكون عاما بين جميع الطبقات الى حد يدفـع الجاهل بالشـعر الى التظاهر بمعرفته كي يجاري التيار والنمط السائدين . يقول فيدال في هذا :

كل الناس من مسيحيين ويهود وعرب ، أباطرة
وامراء وملوك ودوقات وكونتات ، نبلاء ورجال
دين وكل المواطنين الاخرين ، عظماء وبسطاء ، قد
استهواهم وشغل افكارهم وسيطر على عقولهم
حب الشعر والغناء ، حتى لا يسع السامع الذي
لا يفهم شيئا منهما الا ان يتظاهر بالفهم[١٦] .

وقد تحدث كتاب التراث العربي عن وجود مثل هـذه الظاهرة فأكدوا شغف الناس بالادب والشعر ، وقالوا في معرض وصفهم احدى المدن الاندلسية :

انه قلّ ان يرى من أهلها من لايقول شعـرا ولا
يتعاطى الادب ، ولـــو مررت بالحراث خلف

---

(١٥) Ibid., 8.

(١٦) H. J. Chaytor, The Troubadours, 122.

محراثه وسألته الشعر لقرض في ساعته اي معنى
اقترحت عليـــه ، وأي معنى طلبت منـــه
صحيحا[١٧] •

هذا في المغرب ، اما في بغداد وسواها من مدن الشرق ، فان في كتاب الاغاني وحده ما يكفي لتوضيح ما كان عليـه الناس من حب للشعر والغناء والموسيقى •

لقد كان الادب والشعر والغناء هواية الناس المفضلة انذاك ، وكان العربي من كل ذلك هواية الشباب الاوربي • كما اوضحت الشواهد التي ذكرناها سابقا • وحري بالذكر هنا ان الموسيقى العربية كانت ضمن ما تبناه الاوربيون في ذلك الوقت ايضا • اذ يـــذكر هنري فارمر ، الكاتب الانكليزي المختص في هذا الحقل ، ان الموسيقيين الاوربيين كانوا قد تبنوا الات الطرب المستعملة عند العرب باسمائها العربية• فغدت كلمة العود Lute ، وكلمة رباب rebec ، ودخلت كلمة قيثار الى الاسبانية فالفرنسية فالانكليزية guitar • وكذلك اخذ الاوربيون عن العرب طريقة العزف على تلك الآلات ، وبذلك يكون التأثير العربي على الموسيقى الغربية ووسائل الطرب في أوربا واضحا على الصعيدين العملي والنظري[١٨] • ويرى بعض المفكرين الاوربيين ان كلمـــة (تروبادور) نفسها مأخوذة عن كلمة (طرب) العربية[١٩] • كما يؤكد علماء اللغة المختصون بلغات العصر الوسيط وجود اربعة الاف كلمـــة عربية في القواميس الاسبانية وقيد الاستعمال اليومي للاسبان ، وان

---

(١٧) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، ١ : ٣٨١ ـ ٤٠٠ • معجـــم البلدان لياقوت الحموي ، ٣ : ٣٥٧ •

(١٨) H. Farmer, Al-Farabi's Arabic-Latin Writings, 93.

(١٩) غوستاف فون غرنباوم ، دراسات في الادب العربي ، ترجمة احسان عباس ، دار مكتبة الحكمة ، بيروت ، ٢١٦ •

عددا كبيرا من تلك المفردات كان قد تسرب الى اللغات الاوربية الحديثة وما زالت مستعملة في المجالات العلمية والفنية والصناعية وغيرها[٢٠] .

ان الشواهد التي ذكرناها أعلاه والتي تشير الى انتشار اللسان العربي بين المواطنين الاوربيين في تلك الحقبة ، وولوعهم بالادب والشعر والغناء العربي ، وتأثرهم بالموسيقى العربية وتبنيهم آلات الطرب عند العرب ، كانت كلها نتائج مباشرة للاتصال المباشر الذي كان قائما بين العرب والاوربيين في الوقت الذي كان فيه الفكر العربي متفوقا في جميع المجالات على الفكر الاوربي . ولا شك في ان ذلك كله يجعلنا نرجح احتمال تسرب الافكار والاتجاهات التي تضمنها الشعر والغناء لدى العرب آنذاك الى جيرانهم البروفنسيين ، لا سيما في ما يخص الحب ، باعث الشعر والغناء وقوامهما .

الاتصال غير المباشر بين العرب وأوربا ونتائجه

لقد ذكرنا سابقا ان التيارات الفكرية والمظاهر الحضارية تنتقل من شعب الى شعب بطريقتين ، مباشرة ، وغير مباشرة ، وقد تحدثنا عن الاولى وهي المباشرة ، أما الطريقة الاخرى ونعني بها الاتصال غير المباشر فقد تم عن طريق الترجمة ومن المعلوم ان الترجمة من العربية الى اللاتينية كانت شائعة انذاك ، اذ تم نقل معظم المؤلفات والاعمال العربية الى تلك اللغة . ويجد المرء في ما أورده الكتاب الاوربيون شواهد تؤيد ذلك . فقد ذكر ثورندايك بانه دهش لعثوره على اعمال لكتاب عرب في مخطوطات تعود الى القرن الحادي عشر للميلاد ، وجدها في المتحف البريطاني Additional 11, 808 ، وقال الكاتب المذكور انه لمس الاثر العربي في مخطوطات اخرى تعود الى القرن العاشر الميلادي[٢١] .

(٢٠) W. D. Elcock, The Romance Languages, 272-296.
وانظر : بين العربية والانكليزية ، لناجية مراني

(٢١) L. Thorndike, History of Magic and Experimental Science, 698.

وذكر ديفد نويل ان المفكرين العرب سلموا الى اللاتينيـة جزءاً كبيرا من تراثهم الخاص بالاضافة الى نقلهم الفكر الاغريقي الى الغرب عن طريق الترجمة • ويؤكد الكاتب المذكور ان ابن سينا لم يكتف بكشف أرسطوا الى أوربا ، بل جاء بما هو أصيل من نواح عديدة وخطيرة مما أثار اهتمام المفكرين والفلاسفة المتأخرين ، بما فيهـــم القديس توماس ، فجعلهم يصنفونه مـــع علمـــاء الاغريـــق القـــدامى Classic [٢٢] • واما ابن رشد فانه لا يقل عن ابن سينا أثرا في الفكر الاوربي ، اذ انه قام بترجمة ارسطو الى العربية والتعليق على فلسفته واستنباط مبادىء وأسس جديدة كانت مثارا لنقاش الفلاسفة والمفكرين في أوربا • وكانت أكسفورد وبادو وباريس ترسل مترجميها ونساخها ليقوموا بنقل الكتب والاعمال العربية الى اللاتينية[٢٣] • وكذلك الحال بالنسبة الى ابن حزم الاندلسي ، اذ كانت اعماله معروفة وتعاليمه منتشرة في بادو حتى زمن لوثر ١٤٨٣ـ١٥٤٦[٢٤] •

لم تكن اسبانيا وما جاورها من مدن ومقاطعات هي المركز الوحيد الذي انطلقت منه اشعاعات الفكر العربي الى أوربا ، فنحن نعلم ان العرب فتحوا صقلية في أوائل القرن الثامن للميلاد ، وان الجزيرة عادت الى أيدي النورمانديين في القرن الحادي عشر ، الا ان بلاط بالرمو بقي محتفظا بطابعه العربي • ففي عهد فردريك الثاني ١١٩٤ـ١٢٥٠ كان باستطاعة المرء ان يجد هناك مترجمين يتقاضون رواتب ضخمة ويعملون على ترجمة الكتب العربية ، كما يشاهد المـــرء كثـــيرا من الموسيقيين والراقصين العرب في مواسم الاعياد والحفلات • وكان فردريك نفسه ، كما كان ابنه مانفريد من بعده ، من أكبر المتحمسين للعربية ، وقـد

(٢٢) D. Knowels, The Evolution of Medieval Thought, 193.

(٢٣) H. Hume, Spanish Influence on English Literature, 11-12.

(٢٤) J. Kelly, A History of Spanish Literature, 12.

وجها اهتماما كبيرا للعلوم والفلسفة الاسلامية حتى تسربت تلك العلوم في زمنهما الى المدن الايطالية المجاورة[٢٥] . ويستطيع المرء ان يجد في روما نفسها وفي السجلات البابوية التي ترجع الى القرنين الثامن والتاسع للميلاد ما يؤيد ان العرب كانوا يزودونها بما تحتاج اليه في مناسباتها الدينية من أقمشة وملابس كهنوتية[٢٦] .

لقد تلاحمت الآثار والاعمال العربية مع الاوربية تلاحما جعل الشاعر الايطالي العظيم دانتي ينظر الى أرسطو وابن رشد بمنظار واحد ويصنفهما على صعيد واحد وذلك في عمله المعروف الكوميديا الالهية[٢٧] . كما ان تمبير ، اسقف باريس ، احتوى اعمال ابن رشد مع أعمال المفكرين والفلاسفة الاوربيين ضمن لعنته المشهورة عام ١٢٧٧ ، وقد كانت تلك اللعنة موجهة ضد الذين يبشرون بوجود حقيقتين : حقيقة يعرفها المفكر والفيلسوف ، وأخرى يعرفها رجل الدين ، ويذكر كتاب الغرب ان فلسفة ابن رشد تكمن وراء الكتب الملعونة ومن تلك الكتب كتاب اندرياس دي جابلن عن الحب ، ذلك الكتاب الذي اعتمد الفلسفة الرشدية اللاتينية المتفشية آنذاك في أوربا Latin Averroism والتي تقول بفصل العقل عن الدين . حيث يذكر اندرياس في كتابه ان الحب أمر طبعي ، صالح ومشرف ان قيس بمقياس العقل ، وانه أمر محرم ومفسد ان قيس بمقياس الدين . هذه الاقوال الواردة في كتاب الحب الذي ألفه الرجل الكنسي اندرياس ، أثارت اسقف باريس فقال لاعنا : « كأن هناك حقيقتين متناقضتين »[٢٨] .

---

(٢٥) A. R. Nicholson, A Literary History of the Arabs, 444.

(٢٦) Farmer, Op. Cit., 9.

(٢٧) O. Manelstan, "Talking about Dante", 65.

(٢٨) Denomy, Op. Cit., 155.
وانظر Encyclopaedia Britannica, Micropaedia, 1977, Vol. 1, 680

ان كتاب اندرياس الذي سنتحدث عنه في الصفحات القادمة ، هو الكتاب الوحيد الذي ورد في اوربا في ذلك العهد ، متحدثا عن الحب وأسبابه وعلاماته وآثاره وما يتعلق به من امور اخرى . ولكننا ان عدنا الى كتبنا التراثية لاستطعنا ان نجد بينها اكثر من نظير لما كتبه اندرياس . فقد كتب المفكرون العرب ، بالاضافة لما كتبوه في العلوم والفلسفة واللغة والفقه وغيرها من نواحي المعرفة ، كتبوا عن الحب . ومن امثلة ذلك رسالة الشيخ الرئيس أبن سينا المشهورة في العشق ، وكتاب طوق الحمامة في الالفة والألاف للفقيه ابن حزم . وهناك كتب ومصنفات اخرى تبحث في الموضوع نفسه ويستشهد كاتبوها بأشعار لهم أو لشعراء من مشاهير شعراء الغزل السابقين . ومن الجدير بالملاحظة هنا ان اكثر المؤلفات العربية التي كتبت في هذا الموضوع كانت سابقة لكتاب اندرياس في الحب . فاذا اعتبرنا عظم الاثر الذي تركه الفكر العربي على الغرب في جميع المجالات العلمية والادبية والفنية والعمرانية ، أدركنا ان ذلك الفكر كان وراء الاشعار والاغاني والمؤلفات والحكايات الاوربية التي وردت في موضوع الحب في أوربا انذاك .

التروبادورز على الاراضي العربية

يبدو للباحث في هذا الحقل من الدراسات ، ان الشباب في أوربا كانوا يحسون الروح العربية مؤمنة متوثبة جياشة زاخرة حولهم تنفذ اليهم من كل مكان ، في الارض التي يعيشون عليها ، والكتب التي يطالعونها ، والاغاني التي يصغون اليها ، والحكايات والقصص التي يسمعونها من الصليبيين الرائحين الى الشرق والعائدين منه . ويبدو ان تلك الروح قد استهوت هؤلاء الشباب ، كما استهوت نوازع اخرى سواهم ، فبادروا الى زيارتها والحج اليها . وحين نقرأ حياة التروبادورز نجد فيها ما يؤيد هذا القول . فقد روى لنا أحد الكتاب الاوربيين

قصة حياة التروبادور جوفري رودال فأخبرنا ان عشق فتاة طرابلسية دفع هذا الشاعر الى حمل صليبه والتوجه الى أرضها ، لا مجاهدا من أجل قضية الدين ، وانما حاجا تلبية لدعوة القلب . وهذا بلا شك يذكرنا بجهاد شاعرنا جميل بن معمر العذري الذي سنتحدث عنه قريبا .

تقول قصة حياة جوفري رودال :

كان جوفري رودال رجلا نبيلا ، وأمير بلدة سليا ، احب كونتيسة طرابلس ، ولم يكن قد رآها ، أحبها من الاخبار المدهشة التي سمعها عن جمالها وكمالها من أفواه الحجاج الآتين من انطاكية . وقد نظم الاشعار في حبها . ثم دفعته الرغبة في رؤيتها الى حمل الصليب والسفر عبر البحر . فمرض من شدة الحب والشوق مرضا كاد يودي بحياته وهو على ظهر السفينة . وظن لشدة أساه انه سيموت قبل ان يراها . ولكن الركاب على ظهر تلك السفينة نجحوا بحمله الى خان في طرابلس وهو في رمقه الاخير . وكانت الفتاة قد سمعت بخبره ، فهرعت الى زيارته وهو على فراش الموت ، واخذته بين ذراعيها ، وأدرك انها هي الحبيبة ، فصلى شاكرا الرب الذي مدّ في حياته ، ومكنه من رؤيتها قبل موته . ثم مات وهو بين ذراعيها ، فأمرت ان يكون له جناز محترم ومدفن في المعبد ، ثم ارخت قناعها حزنا عليه(٢٩) .

---

(٢٩) Chaytor, Op. Cit., 44-45.

ان التروبادور الذي عاش الحياة العربية في بلده وفوق ارضه ، ثم عاشها في قصة حبه الفتاة الطرابلسية الحسناء ، لابد ان يقول الشعر عربيا بالروح والمعنى ، وان لم يكن عربي الكلمات .

وهناك قصة حياة وليم اوغليوم التاسع كونت بواتيـــه ، وهـــو أول تروبادور وجدت له اشعار مكتوبة في هذا الموضوع كما ذكرنا سابقا . كانت لوليم هذا علاقات وثيقة بدنيا العرب . فبلدته بواتيه كانت في يوم من الايام ساحة حرب بين العرب والفرنسيين وذلك عام ٧٣٢ للميلاد . وزوجته الثالثة هي الملكة الشابة فيليبا من بلدة اراجون في اسبانيا مركز حضارة العرب . ولا يستبعد ، كما يقول المستشرق المعروف نيكل ، ان تكون الملكة الشابة قد جلبت في ركابها من هـــم على علم باشعار العرب وحكاياتهم واغانيهم[٣٠] ، ولا يستبعد ان يكون هذا الرجل على علم بتلك الاشعار والاغاني والحكايات مما دفعه ، الى حمل الصليب والذهاب مجاهدا على رأس حملـــة الى الشرق . حيث تخبرنا المصادر الاوربية ان وليم التاسع كونت بواتيه قاد جيشا قوامه ثلاثمائة الف رجل في حملة صليبية الى الشرق ، وغاب مدة ثمانية عشر شهرا ، عاد بعدها من يافا خاسرا الحرب ، ومزودا بفن الغناء وفن الحب . وتخبرنا تلك المصادر بان أهم ما يميز شعر وليم هو مخاطبة الحبيبة بكلمة سيدي أو مولاي ، مستعملا ضمير المذكر ، وهو أول حدث من نوعه في تاريخ الشعر الاوربي[٣١] . ونحن نعلم جيدا شيوع مثل هذا الاستعمال في شعرنا العربي ، ولسوف يطلع القاريء على نماذج من هذا النوع في الفصول التالية .

ولابد لنا ان نقول في ختام هذا الفصل من دراستنا بان ما رأيناه من اتصال العرب واحتكاكهم باوربا مع تفوق الفكر العربي وتخلف

---

(٣٠) A. R. Nykl. Hispano-Arabic Poetry. 375.

(٣١) The Encyclopaedia Americana, Vol. 28, 784.

اوربا خلال العصر الوسيط كان قد نتج عنه تأثير ذلك الفكر على اوربا في جميع الميادين العلمية والفلسفية والفنية والعمرانية وغيرها ، مما يدعونا الى القول بان المقارنة التي سنعقدها في الفصول القادمة ونحاول عن طريقها ان نثبت أثر الادب العربي على الادب الاوربي فيما يخص الحب ، انما هي مقارنة لها ما يبررها في التاريخ ، وان الحب الذي غناه التروبادورز ومدرستهم يحمل الآراء والفكر والاتجاهات التي عبر عنها العذريون ومن قال الشعر في مدرستهم .

الفصل الثاني

طَبيعَة الحُب

ان الحب الذي نتحدث عنه في كتابنا هذا هو العشق الذي سما عن ان يكون استهلاكا جسديا فكان انصهارا روحيا أعطى هذا العطاء السخي من الشعر الرفيع الذي تغنى بـه الانسان ـ ولا يزال ـ عبر القرون . هذا الحب كان دافعا حمل المفكرين بعد الشعراء على تأليف الكتب والمقالات وطرح الاحاديث والمناقشات بغية تحليله ودرسـه وتعريف الناس به ، ووضع القواعد والاصول له . وقد حصلت اقدم محاولة من هذا النوع في أوربا من قبل رجـل كنسي فرنسي يدعى اندرياس دي جابلن ، كما ذكرنا سابقا ، وترجم كتابه فيما بعد الى الانكليزية تحت عنوان The Art of Courtly Love . ويرجح تأليف ذلك الكتاب في القرن الثالث عشر للميلاد . ويتناول كتاب اندرياس الحب من جميع نواحيه ، فهو يحاول تعريفه وشرح اسبابه ودواعيه ، ويذكر علاماته وآثاره على المحبين ، ويضع له حدودا واصولا وقواعد ، ويفرض عقوبات على المخالفين لقوانينه والكافرين به . ويعتبر النقاد المعاصرون في الغرب ان الكتاب كان محاولة لاستنباط قوانين للحب الذي كان التروبادورز قد عرفوه ومارسوه فعلا وعبروا عنه قولا في اشعارهم . يقول دود :

> ان ذلك الحب كان نظامـا ، وان الافكار التي وردت في شـعر التروبادورز هي أساس ذلك النظام ، وان كتاب اندرياس ما هو الا محاولة شبه علمية لارساء قوانين وقواعـد لما مارسه التروبادورز والعشاق الاخرون المعاصرون لهم في دنيا الحب[١] .

---

(١) W. Dodd. Courtly Love in Chaucer and Gower. 15.

هذا في أوربا خلال العصر الوسيط ، أما في البلاد العربية ، فقد كتب الكثيرون في موضوع الحب ، وظهرت فصول ومقالات وكتب تبحث في العشق ومسبباته وآثاره واحكامه وما قيل فيه • ومنها رسالة ابن سينا في العشق ، وطوق الحمامة في الالفة والالاف لابن حزم ، وكتاب الزهرة لابن داود ، ومصارع العشاق للسراج ، وتزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق للانطاكي وغيرها • هذا بالاضافة الى ما جاء من حكايات العشاق واخبارهم في معظم كتب التراث العربي كأغاني الاصفهاني ، وأمالي القالي ، وخزانة البغدادي وغيرها • ومن الجدير بالذكر هنا ان معظم الكتب العربية تلك سابقة لكتاب اندرياس الذي كتبه عن الحب ، كما ان الاشعار التي استشهد بهـــا مؤلفو الكتب واستخلصوا منها آراءهم كلها سابقة لاشعار التروبادورز واخبارهم • ومن يطلع على كتاب اندرياس ويحلل ما ورد فيه من اراء ومفاهيـــم وأفكار ، فلابد ان يدرك مدى التشابه بينها وبين ما جاء في الكتب العربية المذكورة ، ولا سيما ان المعاني في النثر التجريدي اكثر وضوحا وأقرب الى الفهم منها في الشعر • لذلك سنبدأ بعقد مقارنتنا في هـذا الباب مبتدئين بأندرياس وابن سينا ، ثم نعمد الى مقارنة فكرة الحب ، كما عبر عنها التروبادورز والشاعر الانكليزي جوسر الذي كتب بنفس التراث ، بما ورد في اشعـــار العذريين ومن نحـا نحوهـم في الجزيـرة وبغداد والاندلس من جهة أخرى •

يقدم اندرياس كتابه الى صديقه المحترم وولتر ليكشف له شيئا من أمر الحب[٢] • ويقدم ابن سينا رسالته الى صديقه الفقيه المعصري بغية ايضاح القول في العشـــق[٣] • ثم يســـتطرد الكاتبان فيعالجان الموضوع ، ويتحدثان عن نوع من الحب متميز بظاهرة التناقض ، فهو

---

(٢) Andreas Capellanus, The Art of Courtly Love, 8.

(٣) رسائل ابن سينا ، الجزء الثالث ، « رسالة في العشق » ، ١٠٠

حب حسي وروحي في آن واحد • حب يهذب المحب ويجمل روحه بالنبل والمروءة • يعرف اندرياس الحب بانه الرغبة في امتلاك الجمال الجسدي الظاهر حين تراه • فالرؤية من قبل المحب ، والجمال المرئي من قبل المحبوب هما منطلقا الحب الاول والثاني • اما المنطلق الثالث فهو كون العاشق شابا ، سليم البصر والبصيرة ، مترفعا عن النهم الحيواني ترفعا يجعل حبه مصدر نبل وغنى نفسي • يقول اندرياس في ذلك :

> الحب معاناة يسببها النظر الى جمال الجنس الاخر • فحين يبصر الرجل المرأة اللائقة بحبه ، والمصورة كما يتطلب ذوقه ، يشتهيها قلبه في الحال • وكل منا يتعرض للاصابة بسهم الحب ، الا من كان شيخا كبيرا ، أو أعمى ، او كان ذا شهوة عمياء(٤) •

ويرسم اندرياس الحدود التي يجب ان يلتزم بها المحبون ، فيتمتعوا ضمنها بحبهم • تلك الحدود تسمح بالقبلة والعناق وتحرم ما عداهما • فان اتبع المحب تلك الشروط كان حبه شريفا ومشرفا له في آن واحد ، وان تعداها الى المعصية ، فان حبه لا يعدو ان يكون شهوة حيوانية • يقول اندرياس :

> انه الحب الطاهر الذي يوثق قلوب المحبين ويملؤها غبطة • هذا الحب الذي قوامه التأمل الفكري والميل القلبي ، يسمح بالقبلة والعناق ، ويستغني عما هو أبعد ، اذ لا يسمح به لمن يحب حبا طاهرا عفيفا(٥) •

---

(٤) Andeas, Op. Cit., 29-32.
(٥) Ibid., 122.

ويستطرد الرجل الكنسي فيشرح كون مثل هذا الحب فضيلة اذ يقول :

> هذا هو الحب الذي يجب ان يصبو اليه الجميع بكل قلوبهم ، لانه حب يزيد على الايام بلا نهاية ، ولا يندم اهلوه ، هذا الحب متميز بكونه فضيلة وداعية الى اكتمال الشخصية(٦) .

أما أثر هذا الحب في تهذيب العاشق واكتمال خلقه وشخصيته فقد خصه اندرياس بأكثر من حديث في كتابه . فهو يخبرنا ان الحب هو الينبوع والمصدر لكل الاشياء الخيرة ، ولولاه ما عرف الانسان معنى اللطف والمجاملة والتظرف Courtesy يقول اندرياس :

> ان الحب يحول الرجل الفظ الغليظ الى ظريف لين العريكة ، ويزود الرجل الوضيع المنشأ بالخلق النبيل ، ويجمل المتكبر الصلف بالتواضع . وان المحب لقادر على البذل مستعد لاسداء المعروف لاي كان من الناس ، ومن كان صحيح الحب فلا يمكن ان يكون طماعا شرها(٧) .

ويخبرنا اندرياس في مكان اخر من كتابه خبر رجل فاتر الهمة ، رديء السلوك ، قد نبذته النساء ، أحب امرأة حبا صادقا والح في مرضاتها ، ولم يلبث ان تحول بفعل الحب الى رجل كامل الخلق ممتاز السلوك ، وصار محمودا لدى الجميع(٨) . ومن الواضح ان الكاتب في وصفه الحب وذكر قواعده وحدوده ، انما يتحدث عن الحب خارج

---

(٦) Ibid., 122.

(٧) Ibid., 172.

(٨) Ibid., 31.

نطاق الزواج ، وهو يقولها صراحة : « نحن أعلنا ونتمسك بما أعلناه مرارا ، ان الحب لا يمكن ان يمارس سلطانه بين زوجين » • ثم يثبت اعلانه هذا كقاعدة اولى بين القواعد التي سطرها من اجل الحب[٩] •

تلك هي لمحة موجزة للاراء التي قدمها اندرياس في كتابه « فن الحب » والذي ألفه في القرن الثالث عشر للميلاد باللغة اللاتينية كما اسلفنا • فاذا عدنا الى أبن سينا ٩٨٠–١٠٣٧ ميلادية وقرأنا رسالته في العشق أدركنا التشابه بينه وبين اندرياس في معالجة موضوع الحب ، حتى ليخيل الى القارىء ان اللاحق وهو اندرياس كان قد نقل افكار سابقه نقلا ، أو أن رسالة ابن سينا كانت النموذج الذي اقتفاه اندرياس عند كتابة كتابه على اقل تقدير • فرسالة ابن سينا تتكون من سبعة فصول تتحدث عن وجود العشق وسريانه في جميع الموجودات • فالموجودات كما يقول الشيخ الرئيس « اما ان يكون وجودها بسبب عشق فيها ، واما ان يكون وجودها هو العشق بعينه »[١٠] • ويخصص ابن سينا الفصل الخامس من رسالته للحديث عن « عشق الظرفاء والفتيان للاوجه الحسان » • ويؤخذ من هذا الموضوع ومن الشرح الذي يتلوه ان الحب الذي يتحدث عنه ابن سينا في هذا الفصل هو حسي بدلالة انطلاقه من النظر الى الحسن في الناس ، وهو في الوقت ذاته روحي بدلالة كونه يعد تظرفا وفتوة • يقول ابن سينا :

> ان من شأن العاقل الولوع بالمنظر الحسن من الناس ، وقد يعد ذلك منه ـ في بعض الاحيان ـ تظرفا وفتوة[١١] •

---

(٩) Ibid., 184.

(١٠) رسائل ابن سينا ، ج ٣ ، « رسالة في العشق » ، ٥ •

(١١) نفس المصدر ، ١٥ •

أما الاحيان التي يعد فيها العشق تظرفا ومروءة فتحدد بنظر ابن سينا باكتفاء العاشق بما هو مستحب ومستساغ في دنيا الحب كالعناق والتقبيل ، وبتحريم ما سواهما ، وبذلك يكون الحب عشقا لا فسقا ، ويسمو على الشهوة الحيوانية واللذة المحرمة ، ويعتبر تظرفا وداعية للمروءة والفتوة • يقول ابن سينا في هذا الباب :

وعشق الصورة الحسنة قد تتبعه أمور ثلاثة ، احدها حب معانقتها ، والثاني حب تقبيلها ، والثالث حب مباضعتها ، فاما حب المباضعة فمما يتعين عنده ان هذا العشق ليس الا خاصا بالنفس الحيوانية[١٢] •

وحب المباضعة ـ كما يسميه ابن سينا « لا ينساغ الا لرجل في امرأته أو في مملوكته » وذلك بقصد « توليد المثل » •

ويستطرد ابن سينا شارحا فيقول :

واما المعانقة والتقبيل ، فاذا كان الغرض منهما هو التقارب والاتحاد ، وذلك لان النفس تود ان تنال معشوقها بحسها اللمسي كنيلها له بحسها البصري ـ فليسا بمنكرين في ذاتهما ، ولكن استتباعهما أمورا شهوانية فاحشة توجب التوقي منهما ، الا اذا تيقن من متوليهما خمود الشهوة والبراءة من التهمة •• لا الهم بالفحش والفساد • فمن عشق هذا الضرب من العشق فهو فتى ظريف ، وهذا العشق تظرف ومروءة[١٣] •

---

(١٢) نفس المصدر ، ١٦ •
(١٣) نفس المصدر ، ١٦ •

وواضح هنا ايضا ، ان الحب الذي يتحدث عنه ابن سينا في رسالته والذي تستساغ به القبلة والعناق ويحرم فيه الاتصال الجنسي ، انما هو حب خارج نطاق الزواج وليس بقصد توليد المثل كما يقول الكاتب . ونحن نعلم جيدا ان مشاهير شعرائنا العشاق انما شببوا بنساء منعن عنهم لسبب أو آخر ، واصبحن زوجات لرجال آخرين . فليلى وبثينة وعزة وليلى الاخيلية وعفراء واسماء وريا وغيرهن ، كلهن زوجات طمرت اسماء ازواجهن وشهرت اسماء عشاقهن ، وهم قيس وجميل وكثير وتوبة وعروة والمرقش والصمة . ولو حدث ان تزوج العاشق من معشوقته كما تروي حكاية قيس بن ذريح ولبنى ، فلا تلبث ان تقوم اسباب قاهرة تحمله على طلاقها فيعود عاشقا باكيا متغزلا بالحبيبة الممنوعة ، ويقضي محروما من وصالها[١٤] .

ومن الجدير بالذكر هنا ، ان ابن سينا لم يكن الوحيد بين الذين كتبوا عن الحب من العرب ، والذين أكدوا أثره الفعال في تهذيب الخصال وتزكية الخلال ونمو الشخصية ، وهي أمور يؤكد الاوربيون أهميتها كظاهرة من الظواهر التي تميز الحب الذى عبرت عنه اشعار التروبادورز وتحدث عنه اندرياس في كتابه . ونحن حين ننتقل الى كتب عربية اخرى من كتب التراث التي تتحدث عن الحب ، نجد هذه الفكرة نفسها ترد وتتكرر في كل منها . فقد جاء في كتاب (طوق الحمامة في الالفة والالاف) لابن حزم الاندلسي ٩٩٤-١٠٦٤م ، ان من علامات الحب «أن يجود المرء ببذل كل ماكان يقدر عليه مما كان ممتنعا قبل ذلك فكم من بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان شجع ، وغليظ طبع تظرف وجاهل تأدب ، وتفل تزين» كل ذلك بفضل الحب[١٥] . وذكر

(١٤) الاغاني ٨ : ٢١٨ وما بعده ، الامالي ٢ : ٣١٦ ، وانظر : تاريخ الادب العربي لشوقي ضيف ، ٣٦٤ .

(١٥) طوق الحمامة في الالفة والالاف لابن حزم ، ٢١ .

السراج في كتابه (مصارع العشاق) قول أحد الحكماء ينصح تلامذته بما يلي :

اعشقوا ، فان العشق يطلق لسان العيي ، ويفتح حيلة البليد ، ويبعث على التنظيف وتحسن اللباس ، وتطييب المطعم ، ويدعو الى الحركة والذكاء وتشرف الهمة ، واياكم والحرام[16] .

ويروي كتاب التراث العربي قصة الملك وابنه الخامل . والقصة لاتختلف في جوهرها عما أورده اندرياس عن الرجل الذى رفع الحب من شأنه وصيره محمودا بعد ان كان ساقط الهمة مذموما[17] اما الحكاية التي يرويها العرب فتقول انه كان لاحد الملوك ولد ساقط الهمة فاسد الاخلاق لا يصلح بحال لأن يكون وريثا لملك أبيه وكان الملك الاب يعرف هذه الحقيقة عن ابنه . ففكر في ما يمكن ان يصلح من شأن الامير ، وعرف ان العشق وحده يفعل هذا فسلط على ابنه أجمل بنات المدينة واكملهن ، يجتمعن به ويتحدثن اليه ، حتى احب الامير واحدة منهن حبا صادقا جعله يعلو همة ويتصف باخلاق الملوك[18] . ويحدثنا الانطاكي حديثا مماثلا عن اثر الحب في شرف الخلق فيقول « ان أقل مزاياه تعليم الكرم والشجاعة والنظافة وحسن الاخلاق»[19] .

ان الامثلة والشواهد التي قدمناها أعلاه لتري القارىء بوضوح ان الحب الذى تحدث عنه ابن سينا في اوائل القرن الحادى عشر للميلاد مماثل للحب الذي عاد اندرياس الى الحديث عنه وذكر مميزاته في القرن الثالث عشر الميلادي . اذ ان الرجلين المفكرين يصفان نوعا متميزا من

---

(١٦) مصارع العشاق للسراج ٢ : ٢١_٢٢ .
(١٧) انظر هامش (٨) اعلاه .
(١٨) مصارع العشاق ٢ : ٢٢_٢٣ .
(١٩) تزيين الاسواق للانطاكي ، ٦

الحب الذى يستساغ فيه النظر واللمس والعناق والتقبيل ، مع التحلي بضبط النفس والاحتفاظ بالعفة كشرط اساس ، مما يجعل العشق مهذبا وداعيا للتهذيب والمروءة والفضل •

عفة المحبين بين الثقة والريبة

ان الحب الذي عرفه كل من العرب والاوربيين ، والذي يتحدث عن اللذة الحسية التي تسمو بالعاشق عن مظان السوء ، هذا الحب كان موضع شك وريبة بنظر بعض الناس ، مما دعا الشعراء انفسهم ، عربا واوربيين ، الى الدفاع عن حبهم محاولين تكذيب من يريد الاساءة الى ذلك الحب • اما التروبادورز فقد اكدوا سلامة علاقاتهم مع حبيباتهم وكذبوا اقاويل الجهلاء والمغرضين ؛ اذ يخبرنا ماركابرو ان هناك نوعين من الحب ، احدهما طاهر صحيح ، والآخر زائف سقيم ، وان حبه كان ولازال من النوع الاول • يقول ماركابرو في احدى قصائده :

اقولها ، وقد قلتها مرارا ، وسوف اقولها ،
ان الحب الصادق العفيف والحب الزائف لن
يلتقيا ، وان احدهما ليصرخ ضد الآخر (٢٠) •

اما جوفروا رودال فهو تروبادور آخر يشتاق لرؤية حبيبته وسماع صوتها ، ويعتبر النظر والسماع اعظم لذة يصبو اليها العاشق • فهو يقول :

ان كان يرضيها ، فسوف اكون قريبا منها ،
وسيكون بيننا الحديث المعسول الذي
يعتبره العاشق اعظم متعة يتمناها (٢١) •

ويعمد برنارد دي فانتادور الى توبيخ الجهلاء الذين يظنون بالحب

---

(٢٠) A. Denomy, "Fin Amors", Medieval Studies, VIII (1946), 14.

(٢١) Ibid., 165.

سوءا بينما حبه خير ودائم لانه حب عفيف • يقول برنارد :

ينتقـــد الجلاء الحب ويعيبونه جهـــلا
به ، ولا ضـــرر من الحـــب الذي سيبقـــى
خالدا مادام عفيفا(٢٢) •

اما الشاعر الفرنسي كراتين دي ترويز الذي كتب بنفس التراث ، فقد جعل بطل قصته لانسوليت ، ينحني امام فراش حبيبتـه النائمة جنيفر ، كالمتعبد ، وحين يتركها الى احلامها ويخرج يدخل الى اقرب كنيسة فيصلي (٢٣) •

وحين نعود الى تراثنا العربي نجد امثلة واحاديث كثيرة تؤكد العفة في الحب ، سواء أكان ذلك في اقوال الشعراء ام غيرهم • فجميل بن معمر العذري يدافع عن طهر حبه بثينة ، مؤكدا انه لم يمسها يوما بريبة ، اذ يقول وهو على فراش الموت :

انا في اخر يوم من ايام الدنيا ، واول يوم
من ايام الاخرة ، فلا نالتني شفاعة محمد
ان كنت وضعت يـدي عليها بريبة قط ،
وان اكثر ماكان مني اليها اني كنت آخـذ
يدها واضعها على قلبي فاستريح اليها(٢٤)

ويؤكد جميل ذلك في اشعاره اذ يقول :

لا والـذي تسجد الجباه لـه   مالـي بما تحـت ثوبها وطـر
ولا بفيهـا ولا هممـت بهـا   ماكان الاالحديث والنظر (٢٥)

---

(٢٢) Bernard De Ventadorn, The Songs of Bernard, 82.

(٢٣) C. S. Lewis, Op. Cit., 29-30.

(٢٤) مصارع العشاق ، ٢ : ٣١١ •

(٢٥) ديوان جميل بثينة ، ٥٤ .

ويقول حين تفرقا في الصباح وكانا قد امضيا الليل معا :

وكان التفرق عند الصباح عن مثل رائحة العنبر
خليلان لم يقربا ريبة ولم يستخفا الى منكر (٢٦)

ويؤكد مجنون ليلى ان لوامه انما يلومون جهلا ، فهو محروم من الاستمتاع بحبه ، يقول الشاعر :

يلومونني في حب ليلى ولم انل على اللوم في ليلى حراما ولا حلا(٢٧)

وتبلغ عفة هذا الشاعر مبلغا يجعله يشعر بالخجل من مجرد فكرة تجول بخاطره فتزين له وصل ليلى ، اذ يقول

واني لاستحييك انتعرض المنى بوصلك او ان تعرضي في المنى ليا(٢٨)

ويؤكد كثير صفاء وده وطهر محبته لعزة اذ يقول :

وقال خليلي : مالها اذ لقيتها غداة الشبا فيها عليك وجوم
فقلت لـه : ان المودة بيننا على غير فحش والصفاء قديم(٢٩)

ونقرأ في تراثنا العربي اخبارا تماثل ماورد بهذا الخصوص في التراث الاوربي • فقد روي خبر عاشقين امضيا الليل بالحديث والنجوى ، حتى اذا بدا الفجر ، قاما للصلاة •

وذكر ان اعرابيا سئل مرة :

— ايسرك ان تظفر بمن تحب ؟

قال :

— نعم !

قيل له :

— فما كنت تصنع بها ؟

---

(٢٦) المصدر السابق ، ٥٥ •
(٢٧) الزهرة لابن داود ، ٧١ •
(٢٨) تزيين الاسواق ، ٢ ، ٨٣ •
(٢٩) ديوان كثير عزة ، ١٢٩ •

قال :

ـــ اطيع الحب في لثمها ، واعصي الشيطان في اثمها •

وذكر في موضع آخر ان احد العذريين سئل يوما عن سبب موتهم من الحب ، فقال مجيبا : ذلك لأن في نسائنا صباحة وفي فتياتنا عفة[٣٠]•

ويخصص ابن حزم فصلين في كتابه ، احدهما يسميه (باب قبح المعصية) ، والثاني (باب فضل التعفف) يتحدث في كل من البابين مستشهدا بحوادث وأمثلة وأيات قرآنية كريمة واحاديث شريفة ، وداعيا الى تجنب الفحش والتمسك بالعفة[٣١]

ان تلك القصص والاخبار والاشعار ومثيلها كثير لم تكن لتقنع الآخرين بسلامة تلك العلاقة وبعدها عن الفاحشة فقد كان الشك يداخل نفوس الآخرين حيال العشاق ، وذلك في اوربا وفي دنيا العرب على السواء • وقد أوردنا في الفصل السابق من كتابنا هذا خبر اللعنة التي اصدرها اسقف باريس سنة ١٢٧٧ للميلاد بحق الكتاب الذي الفه اندرياس عن الحب ، لان الاسقف اعتقد في حينها ان ذلك الكتاب مفسد للاخلاق ومسيء للدين كما ان قصص حياة التروبادورز انفسهم ترينا الشيء ذاته • فقد روى لنا احد الكتاب قصة حياة برنارد ، فذكر ان الشاعر برنارد كان قد احب زوجة فايزكونت فانتادورن الحسناء ، ونظم الشعر والاغاني في حبها • وحين ادرك زوجها ذلك ، ثار في نفسه الشك وظن السوء في نوايا الشاعر ولم يستطع ان يصدق ان حب الشاعر لزوجته لايتعدى الشعر ولا يتوخى الفساد • فنفى برنارد خارج ارضه ، واضطر الشاعر العاشق الى الرحيل الى نورمانديا ، ولم يعد الى وطنه بعد ذلك[٣٢] • وهناك حكاية تروى عن زوج دفعته الغيرة والشك الى

---

(٣٠) تزيين الاسواق ، ١ : ٩ـ١٠ •

(٣١) طوق الحمامة ، ١٢١ـ١٤١

(٣٢) Bernard De Ventadorn, Op. Cit., 30.

قطع لسان التروبادور الذي نظم الشعر متغزلا بزوجته ، وقدمه طعاما لتلك الزوجة من حيث لا تدري ، وذلك انتقاما من العاشقين اللذين ارتاب الزوج في سلامة ما بينهما(٣٣) .

وحين نقرأ تراثنا العربي نجد اشياء مماثلة تدل على ريبة الاخرين وشكوكهم بطبيعة الحب الذي يربط بين قلوب العاشقين انذاك . فأخبار جميل بن معمر ، وهو الملقب بامام المحبين ، تشير الى ان رهط محبوبته بثينة كانوا يلاحقون جميلا ويترصدون خطاه لشكوكهم بطبيعة علاقته بابنتهم . وتخبرنا مصادر التراث ان ابا بثينة واخاها ، سمعا يوما ان جميلا عندها ، فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالسا حجزة منها ، يحدثها ويشكوها بثه . واصغى الوالد والاخ الى احاديث العاشقين من حيث لايعلمان ، فتأكدا من سمو هذه العلاقة وبعدها عن الفحش والمنكر ، وحينذاك قال ابوها لأبنه : قم بنا ، فما ينبغي لنا بعد اليوم ان نمنع هذا الرجل من لقائها ، وانصرفا وتركاهما . الا ان شكاوي الزوج الغيور واحاديث الناس وتقولاتهم تفاقمت مما دعا اهل بثينة الى استصدار امر من الحاكم بهدر دم جميل فاضطر جميل الى ترك الوطن والمسير الى مصر حيث قضى هناك . وتقول مصادر التراث ان الحكام اهدروا دم مجنون ليلى ، وقيس بن ذريح ، وعروة العذري وغيرهم من الشعراء العشاق وذلك لنفس السبب (٣٤) ويخبرنا القالي في أماليه ، ان ليلى الاخيلية حبيبة توبة بن الحمير أقبلت على الحجاج يوما ، وقد أسنت ، فسألها الحجاج وبقية شك لماتزل في نفسه رغم عشرات السنين :

---

(٣٣) Chaytor, Op. Cit., 75.

(٣٤) الاغاني ٨ : ١٠٨ ، ٧ : ١٥٢ ، مصارع العشاق ٢ : ٢٨٧ ، تزيين الاسواق ، ٥٦ .

ـــ فهل رايت منه شيئا تكرهينه ؟

قالت ليلى :

ـــ لاوالله الذى أسأله ان يصلحك ، مارأيت منه شيئا حتى فــــرق الموت بيني وبينه (٣٥) .

وقد دفعت الغيرة والشك زوج عزة الى أن يقسم عليهــا بشتم كثير حين علم أنها قابلته ففعلت ذلك مضطرة ، وبلغ الخبر كثيرا فقــال في تائيته المشهورة :

يكلفها الغيران شتمي ومابهــا هواني،ولكن للمليك استذلت

هنيئا مريئا غــــير داء مخامر لعزة من اعراضنا ماستحلت(٣٦)

أما خبر ام البنين ووضاح اليمن فيعطينا صورة قاسية لماتحملــه هؤلاء الشعراء نتيجة الشك والارتياب في نواياهم تجاه من يتغزلون بهن من الحسان . لقد قيل ان علاقة حب كانت قائمة بين هذا الشاعر وبين أم البنين زوجة يزيد بن عبدالملك ، فقد كان الشاعر كثير التغزل بها . وذكر ان وضاحا كان في مجلســها ، فعلم الزوج بذلــك واقبل اليها ، فما كان منها الا أن أخفت الشاعر في صندوق لها .

قيل : وكان الزوج قــد علــم من بعض الوشاة بخبر الحبيب والصندوق فأمر بحمل ذلك الصندوق ودفنه بما فيه ، ولم يسمع خبر الوضاح بعد ذلك(٣٧) .

مما رأينا يتبين لنا ان الحب الذي عبر عنه التراثان الادبيــان في في أوربا وفي بلادنا العربية ، كان مثارا لآراء متناقضة من قبل معاصريه فمنهم من يتحدث عن عفة هذا الحب ويؤكد انه عاطفة شريفة ومشرفة ، ومنهم من يعتبره فسقا مفسدا للدين والدنيا . هذا في القديم ، اما في

(٣٥) الامالي ، ٨٧ .

(٣٦) خزانة الادب ، ٢ : ٣٨١ .

(٣٧) الاغاني ٦ : ٨١ ، مصارع العشاق ٢ : ١٩٢ .

عصرنا الحديث فليست الحال بخير مما كانت عليه قبل اجيال ، اذ ان موقف النقاد والادباء في القرن العشرين من ذلك الحب ما يزال مماثلا لما كان عليه موقف القدامى ، منهم من يبارك ذلك الحب ومنهم من يلعنه . فبينما نرى ان الكاتب الانكليزي المختص لويس يمجد حب التروبادورز فيقول : « ان لم يكن ذلك الحب دينا فهو على كل حال نظام خلقي »[٣٨] . وان الشاعر الامريكي بوند يقول اقوالا تمجد التروبادورز وتجعلهم انصاف آلهة[٣٩] . يشك كتاب اخرون في سلامة ذلك الحب ويستبعدون ان يلتقي حبيبان ويتلامسا ويتعانقا ويقبل احدهما الاخر ثم يعفا . ويقول الكاتب الامريكي بنتن ان ذلك الحب لا يعدو ان يكون نوعا من الزنى ، ويقترح حذف التعبير الذي يدل عليه Courtly Love من قاموس الادب[٤٠] .

هذا في الغرب ، اما في دنيا العرب الحديثة ، وعلى الرغم من قلة ما كتب في هذا الموضوع ، فان الذين تناولوه انقسموا بالرأي الى فريقين ايضا . الفريق الاول ومنه طه حسين الذي يمجد الحب العذري ويتحدث عن شعر العذريين قائلا : « هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الامر مرآة صادقة لطموح البادية الى المثل الاعلى في الحب من جهة اخرى[٤١] ، ويوسف خليف الذي يتحدث عن الحب العذري فيصوره كمأساة تدور حوادثها بين عاشقين تسيطر على حبهما العفة والاخلاص والتوحيد والحرمان والطهارة ، فهو يقول « ان هذا الحب هو انتصار الروح على الجسد وهزيمة النفس الامارة بالسوء أمام المثالية الخلقية التي يؤمن بها الشاعر العذري »[٤٢] . والجواري وشوقي

(٣٨) Lewis, Op. Cit., 36.
(٣٩) E. Pound, The Spirit of Romance, 99.
(٤٠) J. F. Benton, "Clio and Venus" in Newman, ed. 40.
(٤١) حديث الاربعاء لطه حسين ، ٢ : ٢٣٨ .
(٤٢) الحب المثالي عند العرب ليوسف خليف ، ١٩ ـ ٥٢ .

ضيف اللذان يريان ان الغزل العذري غزل نقي طاهر ممعن في النقاء والطهارة[٤٣] . اما افراد الفريق الثاني فهم يهاجمون الحب العذري ويعتبرونه فحشا . ومن هؤلاء صادق جلال العظم الذي يعتقد ان الحب العذري هو حب شهواني في أصله ، ونرجسي في موضوعه ومنحاه . وينحى العظم باللائمة على هذا الحب وحكاياته التي تمجد « الحب خارج نطاق الرابطة الزوجية ولا تؤاخذ العاشقين على حبهما الزاني » كما يقول الكاتب[٤٤] .

والاقوال في هذا الفصل ، ترينا مدى التشابه بين الافكار والاتجاهات التي يعكسها تراثنا العربي في مجال الحب ، وتلك الافكار والاتجاهات التي يعكسها التراث الاوربي في نفس الموضوع . فشعراؤنا العذريون والتروبادورز الفرنسيون انفسهم ، والمفكرون والفلاسفة العرب والغربيون الذين كتبوا في موضوع الحب هذا ، هؤلاء واولئك جميعهم تحدثوا لنا عن نوع من العشق تلتقي عنده اللذة الحسية بالنشوة الروحية ، حب خارج نطاق الزواج الا انه حب عفيف يكون داعية للنبل والمروءة . ان هذا التناقض الواضح في مفاهيم الحب ، كان سببا للاختلاف الوارد في مواقف الاخرين منه قديما وحديثا ، في الغرب وفي بلادنا العربية على السواء ، كما رأينا ، حيث يمجده بعضهم ويلعنه البعض الاخر ويظن به الظنون . الا ان الشبهات والظنون واللعنات التي وجهت الى التروبادورز وشعرهم لم تنل من أهمية هذا الشعر ولم تقلل من تأثيره ، فقد بقي طيلة القرون التسعة الماضية يكوّن خلفية الادب الانكليزي . كما ان الاقاويل والشكوك التي دارت حول غزل

---

(٤٣) الحب العذري للجواري ، ٣٥ ، تاريخ الادب العربي لشوقي ضيف ، ٣٥٩ .

(٤٤) في الحب والحب العذري لصادق العظم ، ١٠٨ ــ ١٠٩ .

العذريين وهدر دم معظم هؤلاء الشعراء لم يمنـــع اعجاب الاجيال العربية باشعارهم والاستمرار على ترديد اغانيهم في الخيام والقصور ، وحتى يومنا هذا • ولعل في قول الشاعر الانكليزي جوسر ، وفي قول شاعرنا المتنبي ما يضيف صوتا الى اصوات المعجبين المناصرين ، ويضعف اصوات المعارضين الشانئين •

يقول جوسر ما معناه : كل من قال ان الحب خطيئة ، لم يكن غير حسود ، عاجز عن ان يحب ، بسبب ضعف في عقله ، أو غلظ في طبعه • وماذا يضير الشمس في اشراقها ، ان عجز كليل البصر عن ادراك ضوئها(٤٥) •

And anyone who says that love is wrong,
Or slavery, then he is nothing less
Than envious, or in his wit not strong,
Or lacking power to love for crustiness;
And folk who talk of hardship and distress,
But slander love and nothing of him know;
They talk but they have never bent his bow.

For is the sun the worse in its own right
Because some man, for weakness of his eye
May not endure its radiance so bright?

كل من قال بان الحب ذنب
او عبودية ،
فهو حاسد أو ضعيف اللب
او غبي لا يطول الحب •

---

(٤٥) G. Chaucer, Troilus and Cressida, Vintage Books, 75.
الاشعار التي سنتمثل بها كلها من هذه النسخة المنقولة الى الانكليزيـــة الحديثة •

كل من قال بان الحب هم وعذاب
فهو عاذل ،
لو درى ما الحب ما كان يلوم .
ما يضير الشمس في أوج علاها .
ان كليل العين لم يدرك سناها

وقبل جوسر بأربعة قرون ، قال المتنبي ، فشمل ببيت واحد ، جميع الذين اعتادوا ذم الاشياء جهلا بها وعجزا وتقصيرا عن ادراك حقيقتها ، لعلة في نفوسهم ، لا في الاشياء التي يذمون . يقول المتنبي :

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا[٤٦]

(٤٦) ديوان المتنبي ، ٣ : ٤٢٩ .

الفصل الثالث

المرأة

يعتبر الحب الذي عبر عنه التروبادورز في اشعارهم ثورة حررت المرأة الاوربية من مفاهيم العصر الوسيط • فالمرأة بعد تلك الثورة ، لم تعد كما كانت ، اداة لأشباع غريزة الرجل ، أو مجرد مربية لاطفاله ، ولم تعد خادما مطيعة او اختا قانتة كما كانت في عصور المسيحية الاولى ، ولا شيطانا رجيما كما هي بنظر الكهان • لم تعد المرأة هذا ولا ذاك ، بل اصبحت هدفا ساميا ومثلا عاليا يسعى اليه الرجل باذلا ومضحيا ومتحليا بكل ما يتحلى به الرجال من خصال • لقد تسامت المرأة لدى هؤلاء الشعراء ، فوق حدود الادمية ، فوصلت الى السماء واصبحت معبودة[1] تلك المعبودة هي المثل والنموذج للانثى ، فجمالها الجسدي ما فوقه جمال ، وحديثها ما بعده حلاوة ، وخلقها لا عيب فيه ولا نقص ، كل تلك المزايا والصفات أغدقها الرجل على المرأة التي يعشق ، وعرفت من خلال اشعاره واقواله • فقد كشف لنا الادب عن امرأة كاملة الخلق والخلق ، لولا انها متمنعة متحفظة ، مما يزيدها جلالا في عالم الحب ، ويجعل عاشقها معلقا بين خوف ورجاء ، وقرب وتناء ، فهو ابدا « يرجو ويتقي » • تلك هي صورة المحبوبة في أدب التروبادورز ، وهي الصورة نفسها التي عرفناها في أدب الحب عندنا والذي سبق التروبادورز بقرون كما اسلفنا • وسنقدم أدناه نماذج من الادبين توضح الآراء والاتجاهات المشتركة بينهما •

المعشوقة ذات جمال وخصال

ان الحبيبة كما يصورها الشعر البروفنسي والشعر العربي ، هي أجمل خلق الله جميعا • فالتروبادور ارنوت دي مارويل ، يرينا ان

(١) E. E. Lucka, The Development of the Sex. Relation Through the Ages, 60.

حبيبته تفوق الاخريات جمالا كما يفوق ضياء الشمس ما عداه • يقول ارنوت :

جمالها غلب كـل جمـال سـواه ، كما فـاق
ضياء الشمس كل ضياء عداه[٢] •

ويخيل للشاعر ان تلك الحبيبة لم تخلق من الطـين كالآخرين ، وذلك لفرط جمالها وكمالها • فيقول :

يبدو ان الله خلقها من ياقوت ومن كريستال ،
فهي ليست من طين[٣] •

ويستطرد الشاعر في ذكر تفاصيل ذلك الجمال فيقول :

قلبي ، رفيقك الدائم الملازم ، جاءني رسـولا
منـك ، فصور لي شخصك الظريف النبيل ،
وشعرك الكستنائي الجميـل ، وجبهتـك
الناصعة كالزنابـق ، وعينيـك الضـاحكتين
المرحتين ، وبشرتك البضة التي فاقت الورود
كلها بياضا مشربا بحمرة[٤] •

ويقارن ارنوت دانيال حبيبته بكل جميلات الارض فيجدهـا تفوقهن جميعا ، بل لايكاد يجد وجها للمقارنة بسبب تفوق الحبيبة • يقول التروبادور :

اما بخصوص الجمال ، فالاخريات يتضاءلـن
حتى ان أجملهـن لتقـع دون حبيبتي ان
هي قيست معهـا بمقياس الحسـن[٥]

---

(٢) Chaytor, The Troubadors and England, 110.
(٣) Ibid., 14.
(٤) Ibid., 51.
(٥) Chaytor, The Troubadours of Dante, 161.

ويصف جوسر كرسيدا فيقول ان جمالها لا يضاهيه جمال في كل طروادة ، فهي كمخلوق سماوي اسبغت عليه نعمة الكمال ونعمة الخلود ، وارسل يتهادى على كوكبنا الارضي باعتزاز(٦) :

Cressida was the name this lady bore,
And in the Trojan city, to my mind,
Was none so fair, for in her beauty more
Angelical she seemed than human kind,
As though a thing immortal were combined
Of all of heaven's gifts of choicest worth,
And sent down here in scorn of our poor earth.

كان اسمها كرسيدا
فضلت على حسان طروادة جمالا ،
ملاك بصورة انسان
مخلوق سماوي خالد
أسبغ الله عليه الجلال والكمال
وارسله الى كوكبنا المسكين
يتهادى بعز ودلال .

ويستطرد الشاعر جوسر فيصف تفاصيل جمال المرأة المعشوقة ، ذراعيها ، ظهرها ، عطفيها ، صدرها وعنقها ، نعومتها وبياضها وامتلاء جسدها كما يلي(٧) :

---

(٦) Chauper, Op. Cit., 6.
(٧) Ibid., 155.

Her slender arms, her back so straight and soft,
Her yielding sides, so long and smooth and bright.
He gently stroked, nor failed to note full oft
Her snowy throat, her rounding breasts si white,
Whereon he gazed in heavenly delight.

ذراعاها الناعمان وقدها الأهيف السمح
عطفاها الهضيمان وجيدها الناصع
وصدرها الناهد البض ،
لقد أخذ بجمالها
وانتشى برحيق السماء .

ونحن اذ نعود الى تراثنا ونقرأ ما لدينا من تصوير الشعراء لمعشوقاتهم ، نجد المعشوقة مثلا ونموذجا للجمال الانثوي ، ونحس ان وصف الحبيبة في الادبين الاوربي والعربي متشابه في الاسلوب والمعنى . فجميل لا يكتفي بنعت بثينة بالبدر ، بل يخبرنا ان الله قد فضلها واجتباها وخصها بحسن فريد بين الناس كما أفرد وخص ليلة القدر بالفضل بين الليالي . يقول جميل بن معمر :

هي البدر حسنا والنساء كواكب ۝ وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما ۝ على الف شهر فضلت ليلة القدر(٨)

(٨) ديوان جميل بثينة ، ٤٤ .

ويذكر جميل تفاصيل جمال الحبيبة ، فيصف لون بشرتها وعينيها وشعرها ، ويتحدث عن حيائها ووقارها ، فيقول :

بيضـــاء خالصة البياض كانهـا ... قمر توسط جنح ليـــل اســـود
وترى مدامعهـــــا ترقرق مقلة ... سوداء ترغب عن ســـواد الاثمد
خـــــود اذا كثر الكلام تعوذت ... بحمى الحياء وان تكلم تقصد[٩]

ويصف جميل في قصيدة اخرى عيني الحبيبة ومبسمها وجيدها ونعومة جسدها :

صادت فؤادي بعينيهـا ومبتسم ... كأنـــه حـــين ابدتـــه لنا برد
عـــذب كأن ذكي المسك خالطه ... والزنجبيل ومـــاء المزن والشهد
وجيد أدمـــــاء تحنوه الى رشأ ... أغن لم يتبعهـــا مثله ولـــد
رجراجة رخصة الاطراف ناعمة ... تكاد من بدنها في البيت تنخضد
خـــدل مخلخلها وعث مؤزرها ... هيفاء لم يغذهـــا بؤس ولا وبد
هيفـــاء مقبلــــة عجزاء مدبرة ... تمت فليس يرى في خلقها أود[١٠]

ويدخل كثير عزة الحبيبة في مسابقة جمال مع الشمس ، ويجعل للمسابقة حكما يقضي بفوز عزة . يقول كثير :

لـــو ان عـــزة خاصمت شمس الضحى
في الحسن عنـــــد موفـــق لقضى لها
وسعى الي بصـــرم عزة نســـــوة
جعـــل المليـــك خدودهن نعالها[١١]

---

(٩) المصدر السابق ، ٢٢ ، الاغاني ، ٢ : ٢١-٢٢ .
(١٠) نفس المصدر ، ٤٠ .
(١١) ديوان كثير عزة ، ٣٩٤ .

أما في بغداد فنجد ابن الاحنف يخاطب حبيبته قائلا :

ان النساء حسدن وجهك حسنه　　حسن الوجوه لحسن وجهك حاسد
جال الوشاح على قضيب زانه　　رمان صدر ليس يقطف ناهد(١٢)

ثم يعود في مكان اخر ليخبرنا عن جمال حبيبته السماوي الذي جعلها تعلو عن منزلة البشر • يقول ابن الاحنف في هذا :

كانما كان في الفردوس مسكنها　　فجاءت الناس للآيات والعبر
لم يخلق الله في الدنيا لها شبها　　اني لاحسبها ليست من البشر(١٣)

ويكتفي ابن زيدون بوصف حبيبته ، فالوصف يكشفها للناس اذ لا ثاني لها بينهم جمالا ، فقد انشأها الله من مسك لا طين ، وهي بضة كالفضة النقية ، متوجة باكاليل من الشعر الذهبي ، تلتمع زهر النجوم في وجنتيها ، فتزيدها حسنا وتدفع عن حسنها أذى الحاسدين • يقول ابن زيدون :

ربيب حسن كأن الله انشأه　　مسكاً وقدر انشاء الورى طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه　　من ناصع التبر ابداعا وتزيينا
كانما انبتت في صحن وجنته　　زهر الكواكب تعويذا وتحسينا
اذا انفردت فما شوركت في صفة　　فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا(١٤)

ان اوصاف الجمال الجسدي للمرأة المعشوقة والتي قدمنا نماذج لها من الادبين الاوربي والعربي ، لا تدع مجالا للشك في ان المعشوقة في كلتا الحالتين ليست فكرة مجردة مطلقة ، وليست هي الهاً خفي عن الناس سره ، بل انها امرأة حقيقية عاشت كما عاش سواها من النساء • وان كان الشعراء قد أكدوا وبالغوا في وصف جمالها

(١٢) ديوان العباس بن الاحنف ، ١٠٢ •
(١٣) نفس المصدر ، ١٦٦ •
(١٤) ديوان ابن زيدون ، ٩٣ ـ ٩٤

الجسدي ، فانهم في الوقت نفسه لم ينسوا أو يهملوا الحديث عن جمال اخلاقها • وسنقدم نماذج من ذلك مستمدة من الادبين الاوربي والعربي لكي نرى مدى التشابه في المفاهيم والافكار الواردة هنا وهناك •

يصف لنا برنارد حبيبته ، فينعتها بعذوبة الخلق والظرف والمرح ، بالاضافة الى جمالها الجسدي • يقول التروبادور :

لها خلق عذب وشخصية تفيض بالظرف والمرح ،
ما رأيت مثيلا لها ، ذات قدر وجمـــال ، فضيلة
وحكمة ، فوق ما استطيع وصفه(١٥) •

ويعود الشاعر نفسه في مكان اخر فيخبرنا انه ـ وان حاول ـ فليس بمستطيع ان يجد بها أي نقص أو عيب ، يقول في هذا :

لا استطيع ذكرها بسوء ، اذ ليس فيها ما يعيب ،
ولو كنت وجدت فيها عيبا واحـــدا لذكرته ،
ولكنني لم اجد ، فماذا أقول(١٦) •

كذلك يصور جوسر كرسيدا كشخصية ممتازة جديـرة بالحمد والثناء ، حتى من قبل الملوك ، اذ انه يجعل الاميرات والامراء يمتدحونها وينعتونها بالذكاء وضبط النفس وحسن التصرف ونبل الاخلاق • يقول جوسر(١٧) :

When she had left and closed the interview
They still commended her with praises new,
Her wit, her charm and all her general style,
And Troilus listend with an inward smile.

---

(١٥) : Bernard, Op. Cit., 119.
(١٦) : Ibid., 73.
(١٧) : Chaucer, Op. Cit., 118.

ختم الحديث وغادرت المجلس

فلهج الجميع بذكرها ،

حمدوا ذكاءها وفتنتها وادبها ،

والحبيب يصغي

وقلبه يفيض غبطة .

أما في تراثنا العربي فنقرأ ان المجنون سئل يوما عما اعجبه في ليلى فقال : « كل شيء رأيته وسمعته منها اعجبني . والله ما رأيت شيئا منها قط الا كان في عيني حسنا وبقلبي علقا ، ولقد جهدت ان يقبح منها عندي شيء أو يسمج او يعاب لأسلو عنها فلم أجده »[18] .

وقال المجنون ينعت ليلى بالجمال والجلال معا :

بيضاء باكرهـــا النعيم فصاغها بلباقـــة فأدقهـــا وأجلها[19]

ويجمع جميل في وصفه بثينة جمال الجسد وحـــلاوة الحديث والوقار ، فيقول :

غـراء مبســام كأن حديثهـــا در تحـــدر نظمـــه منثور
محطوطة المتنـــين مضمرة الحشا ريـــا الروادف خلقهـا ممكور
لا حسـنها حسن ، ولا كدلالها دل ، ولا كوقارهـــا توقير[20]

ويصف كثير عزة بالنعومة وحسن الحديث والحياء ، فيقول :

من الخفـــرات البيض ود جليســـها
اذا ما انقضت احـــدوثة لو تعيدها
منعمة لـــــم تلـــق بؤس معيشة
هي الخلد في الدنيا لمـن يستفيدها[21]

---

(١٨) تزيين الاسواق ، ٢ : ٧٣ ، الشعر والشعراء ، ١ : ٤٧٦ .
(١٩) الشعر والشعراء ، ١ : ٤٧٦
(٢٠) ديوان جميل بثينة ، ٥٠ .
(٢١) ديوان كثير عزة ، ٢٠٠

وينعت ابن زيدون حبيبته بعذوبة الخلق وجمال الخلقة وحسن الحديث فيقول :

له خلـــق عذب وخلـــق محسن
وظرف كعرف الطيب أو نشـوة الخمر
يعـــلل نفسي من حديث تلـــذه
كمثل المنى والوصل في عقب الهجر[٢٢]

المعشوقة ذات تمنع ودلال

ان المعشوقة التي ينعتها شعراؤنا وشعراء الغرب ، بالجمال والجلال والرقة والظرف والعذوبة ، هذه المعشوقة نفسها هي القاسية الممعنة في الدلال والهجر والصد وتعذيب الحبيب . ذلك ما نجده في شعر الحب الاوربي الذي ورد على لسان التروبادورز الفرنسيين ومن نسج عـلى منوالهم ، ونجده في الشعر العربي الذي سبق التروبادورز ورسم لنا صورة الحبيبة الجميلة الرقيقة القاسية المتمنعة وسنعطي نماذج للمقارنة بين الادبين في هذا المجال .

يصف برنارد حبيبته بالجمال ، ولكنه يتهمها في الوقت ذاته ، بالبرود والبخل والتمنع فيقول :

ايها المخلوق الحلـو الساحر ، البخيل ، اللطيف
المتكبر ، المليح الجميل فوق ما ينبغي ، يا حبيبتي
التي لا أحب سواها ، اسألك باسم الرحمة فقط
ان تشفقي علي[٢٣] .

---

(٢٢) ديوان ابن زيدون ، ٧٨ .

(٢٣) Bernard, Op. Cit., 50.

ويعود في مكان اخر فيؤكد ان الحبيبة قاسية وبخيلة فيقول .

كثيرا ما احدث نفسي فأقول : لقد كانت قاسية
وبخيلة معي حقا(٢٤) .

ويخيل الى التروبادور احيانا ان حبيبته موشكة على قتله بتمنعها وبخلها ، فيؤكد ان ما يسرها يرضيه ، فهو لا يتشكى ان سرها قتله : يقول برنارد :

انا تحت رحمتها ، ولو سرها قتلي فلسوف تجدني
راضيا بما يسرها ، لا اتشكى(٢٥) .

ويحدث ان يثور المحب على ظلم الحبيبة ، فيعمد الى لومها وتهديدها بالحساب العسير وبالعقاب وفقا لقوانين الحب ، يقول ارنوت دي مارويل في هذا المعنى :

ستحاكمين حسب قانون الحب ، وستحاسبين
وتلامين ، انت التي حملتني ظلما ، وأورثتني
سقما(٢٦) .

ويفسر جوسر تمنع الحبيبة وعذاب المحب تفسيرا في صالح الحب ، اذ يقول ان من تمتع بحلاوة الحب فقط ، ولم يذق مرارته ، فقد جهل المحبة ، يضعها الشاعر الانكليزي كما يلي(٢٧) :

---

(٢٤) Ibid., 63.

(٢٥) Ibid., 20.

(٢٦) Chaytor, Op. Ct., 76.

(٢٧) Chaucer, Op. Cit., 3.

But O ye lovers, bathed in bliss always,
If any drops of pity in you be,
Recall the griefs gone by of other days,
And think sometimes upon the adversity
Of other folk, forgetting not that ye
Have felt yourselves Love's power to displease,
Lest ye might win Love's prize with too great ease.

ايها المحبون السعداء
اذكروا آهات الذين اشقاهم الحب
بشيء من الرحمة والرثاء ،
واذكروا الآهات التي أمضتكم يوما ،
انه الحب
لا يعرف هناه ، الا من عرف أساه .

ان هذه المعاني التي عكسها الشعر الاوربي ، واردة جميعها في شعرنا العربي ، اذ لاتكاد قصيدة غزل تخلو من شكوى الشاعر وطلبه الرحمة والشفقة من الحبيبة القاسية البخيل . انبثينة ، كما يصفهاجميل مولعة بالبخل ومتصفة به . يقول الشاعر :

الاانها ليست تجود لذي الهوى   بل البخل منها شيمة والخلائق[٢٨]

ويؤكد ابن معمر ان غريمه الموسر ، بثينة ، مولع بالبخل والمطل، فلا يقضي دينا ، ولا يرحم المحتاج المتطلع الى نواله . يضع جميل هذا المعنى كما يلي :

اني اليك بما وعدت ، لناظر   نظر الفقير الى الغني الموسر
تقضى الديون ،وليس ينجزموعدا   هذا الغريم لنا ، وليس بمعسر[٢٩]

(٢٨) ديوان جميل ، ٧٣ .
(٢٩) نفس المصدر ، ٤٧ .

ويخبرنا جميل عن مقاضاة جرت بينه وبين بثينة ، وفيها يطالب الشاعر غريمه البخيل المطول بقضاء ما عليه . يقول جميل في بعض تلك القصيدة :

وقلت لها : اعتللت بغير ذنب وشر الناس ذو العلل البخيل
فعاتيني الى حكم من اهلي واهلك لايحيف ولايميل
فولينا الحكومة ذا سجوف أخا دنيا ، له طرف كليل
وقلت له : قتلت بغير جرم وغب الظلم مرتعه وبيل
فسل هذي : متى تقضى ديوني وهل يقضيك ذو العلل المطول؟ (٣٠)

وجميل ، ان قتلته الحبيبة ، فانه لايكتفي بما اكتفى به التروبادور برنارد من الرضا وعدم التشكي ، وانما هو يبكي حبا وشوقا الى قاتله ، فيقول :

خليلي ، فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلي ؟(٣١)

ويخبرنا كثير عن بخل عزة واعراضها ومسارعتها الى الصدود والقطيعة فيقول :

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرة نذرا فأوفت وحلت
كأني انادي صخرة حين اعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت
صفوح فما تلقاك الابخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت(٣٢)

ويقول كثير في موضع آخر مؤكدا نفس المعنى المذكور أعلاه :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها
اذا سمت نفسي هجرها واجتنابها رأت غمرات الموت في ماسومها(٣٣)

---

(٣٠) المصدر السابق ، ٧٩ .
(٣١) نفس المصدر ، ٧٨ .
(٣٢) ديوان كثير عزة ، ٩٧ ــ ٩٨ .

ويخبرنا كثير عن تثاقل الحبيبة عن لقائه على الرغم من زياراته القليلة ، فيقول :

وآتي بيوتا حولكم لا احبها　　واكثر هجر البيت وهو جنيب
اراكم اذا ما زرتكم - وزيارتي　　قليل - يرى فيكم الي قطوب(٣٤)

اما ابن الاحنف فيحدثنا عما يقاسيه من بخل الحبيبة وتمنعها ، فيقول :

لعمري لشتى بين حران هائم　　وبين رخي باله متودع
وهبت لها نفسي فضنت بوصلها　　فيالك من معط ومن متمنع(٣٥)

أمر ونهي

ان الحبيبة الموصوفة بالجمال والظرف وحلاوة الحديث ، مع ماهي عليه من بخل وتمنع ودلال ، كانت ولا شك ، تتبوأ المكانة العليا في دنيا الحب . اذ انها تتحكم برعاياها مغدقة فضلها ورضاها على من يستحق وفق تقديراتها . وفوق هذا فان لها من المزايا والقدرات مايجعلها جديرة بتلك المكانة ، حيث ان لها القدرة على ان تسعد المحب أوتشقيه، تسقمه او تشفيه ، تميته او تحييه . تلك هي القدرات التي تتمتع بها المرأة والتي يعترف بها كل المحبين . ان المرأة المحبوبة هي صاحبةالكلمة الاولى في قبول الحب الذى يقدمه لها الرجل أورفضه . ذلك هو المبدأ الاول وهو وارد في التراث الاوربي من كتابات واخبار واشعار ، كما انه وارد في تراثنا العربي ، شعرا ونثرا . وسوف يرى القارىء ادناه نماذج من كلا التراثين توضح التشابه فيالفكر والاتجاهات بهذا الصدد

---

(٣٣) المصدر السابق ، ١٤٣ .
(٣٤) نفس المصدر ، ١٦٥ .
(٣٥) ديوان ابن الاحنف ، ١٩٣ .

يقول اندرياس ، معلم الحب الاوربي في العصر الوسيط ، ان الاختيار والرفض بين يدي المرأة وحدها :

ان الاختيار في أمر الحب متـــروك للمـــرأة ،
فهي حين تحب مـــن قبل اي رجل ، يكـــون
باستطاعتهـــا ان ارادت ، أن تبادلـــه
الحب ، والا ففي امكانها ان ترفضـــه[٣٦] .

ويذكر اندرياس في احدى قواعده المذكورة : بنفس الكتاب :

اما مايأخذه الرجـــل من المـــرأة ضـــد
ارادتهـــا فليســـ لـــه نكهـــة[٣٧]

ويؤكد اندرياس وجوب اطاعة الرجل لاوامر السيدات ، والعمل جاهدا في سبيل مرضاتهن ، فيقول ناصحا الرجال :

كونوا مطيعين في كل الاشياء لاوامر السيدات ،
وجاهدوا كخير جنود في خدمة الحب[٣٨] .

وقد أكد التروبادورز الشيء نفسه في اشعارهم . اذ يخبرنا بالازول بانه يعاهد الحبيبة على الطاعة والوفاء ، وينتظر مخلصا ما سوف تقرر من قبول أو رفض لحبه . يقول الشاعر :

اشتاق الى البقاء بقربك دون شرط ، ولك ان
تقرري انكنت ستنيلينني المعروف ام لا، اختاري
ما ترغبين في أمري ، ولن أعمل شيئا صغيرا او
كبيرا الا وفقا لمشيئتك[٣٩] .

---

(٣٦) Andreas, Op. Cit., 51.

(٣٧) Ibid., 184.

(٣٨) Ibid., 81.

(٣٩) T. Newcombe, "The Troubadour Berenger de Palazol", 77.

ويؤكد الشاعر في مكان آخر طاعته لأوامر الحبيبة ، ماعدا الأمر الذي يقضي بترك هواها ، فذلك مما لا يستطيعه • يقول بالازول :

برغبة اكيدة ، وقلب مخلص صادق ، اعاهـد
نفسي على تنفيذ اوامرك ، الا اذا طلبت منـي
ترك هواك ، فهـذا أمر لا طاقـة لـي على
تنفيذه[٤٠] •

ويبلغ الامر بالمحب حد مخاطبة المحبوبة باللغة التي يخاطب بهـا التابع متبوعه والمرؤوس رئيسه ، معلنا الطاعة والولاء الابديين • يقول التروبادور في هذا المعنى :

حيثما كنت ، واينما سرت ، فانا أتمنى لو انهـا
اعتبرتني تابعها ، وحتى لو كنـت لا اتوقع
منها بهجة ، فانا أؤدي لها الـولاء ، واسـلم
نفسي اليها[٤١] •

ويخاطب برنارد حبيبته بنفس الاسلوب معلنا نفسه خادما وتابعا امينا لحبيبته ، اذ يقول :

يا سيدتي الطيبة ، لا أطلب منك سـوى ان
تقبليني خادما ، وسوف أسهر عـلى خدمتك
سهري على أحسن سيد لي[٤٢] •

اما جوسر فيضع على لسان كرسيدا كلمات تعلن بهـا لحبيبها ترويلس وهو ابن ملك ، ان كونه اميرا لا يغير شيئا من قانـون الحب الذي يخولها هي حق الأمر والنهي • فيؤكد ترويلس رضاه ، معلنا نفسه تابعا ومولى للحبيبة ، وواضعا بين يديها كل امتيازاته الملكية •

---

(٤٠) Ibid., 77.
(٤١) Ibid., 65.
(٤٢) Bernard, Op. Cit., 134.

يكتب جوسر ما يلي(٤٣) :

But still this warning note I yet must sound-
A King's son though you be in all men's sight,
In love I shall be only so far bound
As would in any case be just and right;
And if you do amiss, I shall requite
With blame, yet also as you knightly serve,
Shall cherish you and praise as you deserve.

مازال عندي ما أقول
فأصغ لي :
انت ابن ملك يحكم بين الناس ،
ولكن ، بيني وبينك يحكم الحب
وهو العدل .
ان خالفته فسوف تلام ،
انت فارسي الذي يرعاني ،
وانا احفظ عهدك .

ويخبرنا الشاعر الانكليزي ان ترويلس قد تخلى عن امتيازاته كأمير ، واصبح بحكم الحب تابعا للحبيبة . يقول جوسر ذلك في أغنية وردت على لسان ترويلس مناجيا بها اله الحب(٤٤) .

In her esteem thou hold'st a lofty place,
And for thy power such is rightly thine,
And therefore, Lord, turn not from me thy face,
But be thou gracious to me and benign;
For now my royal rank I shall resign
Into her hands, and humbly standing here,
Become her man, and she my lady dear.

---

(٤٣) Chaucer, Op. Cit., 117.
(٤٤) Ibid., 18.

ياالهالحب ذا المقام الارفع
معبودها ومعبودي ،
تطلع الي بعين رضاك
واشملني بعطفك ،
لست ابن ملك في حضرتها ،
وكلت اليها أمري
ووقفت على خدمتها نفسي
خاشعا متواضعاً ،
انها مولاتي العزيزة •

ونحن اذ نعود الى تراثنا العربي ، نجد ان مثل تلك المبادىء والاتجاهات التي تتحكم في دنيا الحب في أوربا ، صورت كواقع عاشه المحبون العرب وذكروه في اشعارهم ، فتناقله الناس في اخبارهم • ففي التراث العربي ما يؤكد ان حرية اختيار الحبيب كانت حقا من حقوق المرأة ، كما كانت لها حرية تقدير ما تعطي ذلك الحبيب وما تمنع • فالمرأة العربية ، كما تحدث التراث ، كانت تتزوج ممن لا تحب تمشيا مع العرف القبلي الذي يستهجن تزوج من جرى بينهما عشق[٤٥] ، الا ان ذلك العرف ما كان ليستطيع ان يمنع استمرار المرأة بعد الزواج من ان تكون عاشقة معشوقة • وهي ان كانت بموجب قانون القبيلة أو قانون الدين خاضعة مطيعة لزوجها ، فانها بموجب قانون الحب ، آمرة وسيدة لحبيبها • تحدثنا كتب التراث العربي ان عروة بن حزام ـ وهو من عذرة ـ كان احد العشاق الذين قتلهم العشق وصاحبته عفراء بنت مالك العذرية ، زوجها أبوها رجلا اخر ، الا ان علاقته استمرت بها

---

(٤٥) تزيين الاسواق، ١ : ٣٨ ، ٢ : ٦٤ •
عيون الاخبار لابن قتيبة ، ٢ : المجلد الرابع ، كتاب النساء ، ١٢٨ •

فكان يلمّ بعفراء سرا . وحين بلغ الحبيبة موت عروة ، استأذنت زوجها في الخروج لتندب الرجل الذي أحبها واحبته ، قائلة لذلك الزوج :

يا هناه : قد كان من أمر هذا الرجل ما قد علمت ، وما كان والله الا على الحسن الجميل ، وقد بلغني انه مات في أرض غربة ، فان رأيت ان تأذن لي فاخرج في نسوة من قومي فنندبه ونبكي عليه فاذن لها ، فخرجت .. فمازالت تندبه ثلاثا حتى توفيت في اليوم الرابع .

قيل : وقد بلغ معاوية خبرهما فقال : لو علمت بحال هذين الحرّين الكريمين لجمعت بينهما[٤٦] . ان هذه الحكاية وسواها من حكايات واخبار واشعار تروى عن خلوات واحاديث ومطارحات هوى بين بثينة وجميل وعزة وكثير ولبنى وقيس وغيرهم من مشاهير العشاق مما تمتلىء به كتب التراث[٤٧] لتشير الى ان هؤلاء النسوة انما كن يحتفظن بالود والوفاء حتى الموت لمن اخترنهم أحبابا . أما قول معاوية حين سماعه الخبر ، فدليل على ان الخليفة لم يستهجن او يستقبح علاقة الحب تلك ، بل على العكس ، أبدى أسفه لعدم ادراكه الحبيبين والجمع بينهما ، كما انه نعتهما : بالحرّين الكريمين كما رأينا . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان تلك القصص والاخبار والاشعار التي سجلها تراثنا ، تبرز المرأة وكأنها هي واهبة الحب أو سالبته ، وهي الملكة الآمرة والناهية في دنياه . كما نجد العشاق يرددون الاشعار مؤكدين

---

(٤٦) الشعر والشعراء ، ٢ : ٥١٩-٥٢٣ ، الاغاني ٢٠ : ٣٦٦ وما بعدها

(٤٧) الشعر والشعراء ، ١ : ٣٤٧ ، ٢ : ٥٢٤ ، ٤٦٧ ، خزانة الادب ، ١ : ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، الاغاني ، ١٠ : ١٣١-١٦٤ ، الامالي ، ١ : ٨٧ ، تزيين الاسواق ، ٢ : ١١٥ ، وغيرها مما يجده القارىء في المصادر المثبتة في نهاية الكتاب .

رضوخهم وانصياعهم لمن يحبون سواء أنالوا منهن ما يبغون ام لم ينالوا . فالمجنون يخبرنا ان ليلى هي الحاكم الذي لا ينقض له حكم مهما كان حكمه ، اذ يقول :

وانى لأهــواها مسيئا ومحسناً
واقضي على نفسي لها بالتي تقضي[٤٨]

ويقول حين خيرت ليلى في الذي تفضله زوجا :

الا يا ليل قد ملكت فينا   خيارك ، فانظري لمن الخيار[٤٩]

واختارت ليلى وردا وفقا لتقاليد العشيرة ، ولكن قيسا ظل حبيبها ، وظل يناجيها ويحفظ عهدها ويؤكد بانها حرة فيما تعطيه او تمنعه ، وما عليه الا احترام ارادتها ، يقول المجنون :

وآخذ ما أعطيت عفوا ، وانني   لازورّ عما تكرهين هيوب[٥٠]

واشعار جميل تؤكد هذا الاتجاه ، فهو يحكم بثينة في أمره ، ويرضى بما ترضاه له ، اذ يقول :

ابثين انك قــد ملكت فأسجحي   وخذي بحظك من كريم واصل[٥١]

ويصف لنا جميل حوارا دار بينه وبين بثينة ، يكشف فيه ان مقاليد الامور بين يديها وان أحكامها نافذة ، يقول جميل في هذا المعنى :

اذا قلت : مــا بي يا بثينــة قاتلي
مــن الحب ، قالت : ثابت ويــزيد
وان قلت : ردي بعض عقلي أعش بـه
تولت ، وقالت : ذاك منــك بعيـد

---

(٤٨) ديوان مجنون ليلى ، ١٧٦ .
(٤٩) الاغاني ١ : ٦٦ .
(٥٠) ديوان مجنون ليلى ، ٥٧ .
(٥١) ديوان جميل بثينة ، ٨٦ .

فــلا انــــا مردود بما جئت طالبـــا
ولا حبهـــــا فيمـــا يبيـــد يبيـــد
وافنيت عمري بانتظـــاري وعـــدها
وأبليت فيها الدهر وهـــو جديد[٥٢]

ويترك كثير الامر لعزة ، فهي التي حلت عقدة الوصل وقد شدها ، ومع ذلك فهو يرجو رضاها ، فان عز هذا الرضى أزمع المحب عـلى السفر ، مع بقائه على العهد • يقول كثير :

وكنا عقدنا عقـــدة الوصل بيننا ... فلما تواثقنا شــــددت وحلت
فان تكن العتبى فاهـــلا ومرحبا ... وحقت لها العتبى لدينـــا وقلت
وان تكن الاخرى فـــان وراءنا ... بـــلادا اذا كلفتها العيس كلت
واني وان صـــدت لمثن وصادق ... عليها بما كانت الينـــا أزلت[٥٣]

ويعبر ابن الاحنف عن طاعته المحبوب ، ورضاه بحكمه بهـذا القول :

صبٌ بعصياني ولـو قـال لي : ... لا تشـرب البـارد لم أشرب[٥٤]

وهو لا يكتفي بطاعته لحبيبته ، بل يدعو الاخرين الى الاعتراف بالطاعة واعلان العبودية • يقول ابن الاحنف :

ولقـــد قلت والهموم ركود ... ودموعي عـــلى الرداء تجود
يـا بني آدم تعـــالوا تنادي ... انمـا نحن للنسـاء عبيـد[٥٥]

وابن المعتز ، وهو الامير العباسي الجليل ، يعلن أسره وخضوعه لأوامر الحب ، ويطلب الرحمة كالعبد المستجير • يقول ابن المعتز :

اســـر الحب أمـيرا ... لـم يكن قبـــل اسيرا

---

(٥٢) المصدر السابق ، ٣٠ •
(٥٣) ديوان كثير عزة ، ١٠٠ ــ ١٠١ •
(٥٤) ديوان العباس بن الاحنف ، ٣٨ •
(٥٥) المصدر نفسه ، ٩٩ •

فارحمـــــوا ذل عـزيز   صار عبدا مستجيرا[٥٦]

ويصف ابن زيدون ، وهو ذو الوزارتين ، عز الحبيبة وطاعتــه أياها ، فيقول :

تهْ أحتملْ ، واستطل أصبرْ ، وعــزّ أهُنْ
وولِ أقبلْ ، وقــلْ أسمعْ ، ومُرْ أطعِ[٥٧]

سحر المعشوقة وتاثيرهاَ

تلك هي المرأة التي رفعها الجمـــال فارتفعت ، وحكمها الحب فتحكمت . وهي الصورة التي عرفناها خلال الاشعار والاخبار الواردة في كلا الادبين العربي والاوربي . ولم يقتصر هذا التراث أو ذاك على منح المرأة تلك الصفات والامتيازات ، بل تعدياها الى ما هو اكثر من ذلك . اذ غالبا ما نحس بان لتلك المرأة من المزايا والقدرات والكرامات ما يعليها عن مرتبة البشر ويدنيها من الالوهية . فهي اذ تبدو فجأة لعيني حبيبها ، يبهره جمالها وجلالها ، فيبهت وينسى ما يريد ان يقوله لها ، فالعاشق كما صوره الاوربيون ، يلقي حبيبته فيقول مناجيا :

حين رأيتك ، اضطربت روحي وتبلبل فكري ،
فنسيت حتى الكلمات التي كنت قــد أعددتها
لابثك بها وجدي[٥٨] .

ويخبرنا جوسر في حكاية ترويلس وكرسيدا التي مر ذكرهـــا سابقا ، ان ترويلس كان قد أعــد مـا يقولـه لكرسيدا من كلمـات الشوق وعبارات الشكوى ، ولكن ما ان رآها ، حتى نسي ما كان قد أعده ، ولم يستطع ان يردد غير كلمة واحدة هي : الرحمة ، الرحمة . يقول الشاعر وهو يصف المحب يحضر درسه قبل لقاء كرسيدا[٥٩] :

---

(٥٦) ديوان المعاني للعسكري ، ١٤١ .
(٥٧) ديوان ابن زيدون ، ١٣٧ .
(٥٨) Andreas, Op. Cit., 45.
(٥٩) Chaucer, Op. Cit., 113-114.

Now all this time poor Troilus still lay,
Conning his lesson most industriously;
"I think", he planned, "just so and so I'll say,
Thus will I lead her my deep love to see;
This word sound good, 'twill help in some degree,
And this by all means I must not neglect"
And so on, all to much the same effect.

لزم السرير مفكراً
فيما يعده للغد :
ساقول ذا
وابثها ألمي وشوقي ،
هذه الكلمة حلوة سأقولها
وتلك تؤثر
ولا أنسى قول تلك .

ويستطرد جوسر بعد خمسة مقاطع من حكايته الشعرية تصف الحال قبل اللقاء ، يستطرد فيصف لنا لحظة اللقاء فيقول :

With strange and trembling voice, from simple dread
Abashed, and blushing now from ear to ear,
But changing often too, now pale, now red,
To Cressida, his chosen lady dear,
Submissive standing at his side so near —
Lo, all he said when he his lips could part,
Was, twice, "O mercy, mercy, by sweetheart.

ولكنه ،
بصوت مرتجف غريب
بادي الانفعال ، متغير اللون
توجه صوب الحبيبة ، مأخوذاً

افترت شفتاه عن كلمتين لاغيرهما :
الرحمة ، الرحمة ياحبيبتي •

ويصور جوسر الحبيبة ذات قدرة على ان تميت وتحيي عاشقها ، فهو يخاطب كرسيدا ، على لسان الصديق الوسيط ، قائلا لها : افعلي ما شئت من أجل حياته ، أو من اجل موته(٦٠) :

The noble Troilus so loveth thee,
That life or death for him you must decree.

هاهوترويلس بين يديك
وامر حياته أو موته
موكول اليك •

ويخاطب هذا الصديق الوسيط بـين المحبين ، يخاطب صديقه العاشق مؤكدا له ان موته في الحب يعني الشهادة والخلود في السماء • يقول جوسر على لسان الوسيط باندر مخاطبا ترويلس(٦١) :

Despise the world and all the planets seven.
And if you die a martyre, go to heaven!

اصبر ، وتحد الارض والكواكب ،
وان مت بعد ذلك
كنت شهيداً مع الخالدين •

اما التروبادور برنارد فانه يتجه الى الحبيبة ، حاني الرأس ، راكعا ومسلما نفسه الى حكمها • يقول :

أتوجه اليك حاني الرأس ، مكتوف الذراعين ،

---

(٦٠) Ibid., 56.
(٦١) Ibid., 1-2.

واقفا او راكعا ، واسلم نفسي الى حكمك العادل
الشريف(٦٢) .

وحبيبة برنارد هذه ، بمقدورها ان تحييه بعد ان يموت قتيل حبها ، فهو يقول :

كان باستطاعتها ان تحييني بعدما قتلتني ،
وحينذاك تكون قد قضت بما تشاء(٦٣) .

وتلك حبيبة اخرى ، وصفت بانها الطبيب والدواء والبلسم الشافي لمن اصابه سهم الموت ، يقول الشاعر :

سيدتي ، انت الطبيب والبلسم الشافي لمن اصابه
سهم الموت(٦٤) .

ان هذه المعشوقة التي تحدث الشعراء عن مكانتها وقدراتها وما تستطيع ان تعطيه وان تأخذه ، هذه المعشوقة هي شغل حبيبها الشاغل ، فلا يفكر الا بها ، ولا يرى او يسمع ما عداها . فالتروبادورز يؤكدون في أغانيهم ان همومهم ومشاغلهم كلها قد تركزت حول حبيباتهم ، وانهم منصرفون اليهن وناسون كل شيء عدا التفكير بهن . يقول بيير رامون :

منذ ان جرحت فؤادي بنظرتها الحلوة ، لم أعد
أفكر بشيء سواها ، لم تعد تخطر لي خاطرة
اخرى ، ولم يستهوني عمل آخر(٦٥) .

ويعترف ارنوت دانيال قائلا :

اما تجاه رؤية الاخرين ، فانا أعمى ، واما تجاه
ما يقولون فانا أصم ، هي الانسان الوحيد الذي

---

(٦٢) Bernard, Op. Cit., 96.

(٦٣) Ibid., 70.

(٦٤) Chaytor, The Troubadours in England, 121.

(٦٥) T. Kirby, Chaucer's Troilus, 294.

احدق به ، واسمع ما يقول(٦٦) .

ويكتب جوسر بهذا التراث ، فيقـول ان ترويلس ـ الامـير الطروادي ـ حين أحب كرسيدا ، نسي كل شيء سواها ، بما في ذلك الخطر المحدق بطروادة من قبل الاغريق . لقد نسي مدينته المحاصرة ، واستقرت في عقله خاطرة واحدة ، هي التفكير في ما اذا كانت كرسيدا تحبه ام لا . يقول جوسر(٦٧) :

All other thoughts from out his mind had fled —
The Greeks and all his warlike reputation;
Desire new no offspring in him bred.
But reasons leading to one consummation,
That she on him would show commiseration,
And as her man, let him through life endure —
O what a life, for death, O what a cure!

لاشيء يشغل باله
لا المدينة التي يحاصرها الاغريق ،
ولا سواها من شؤون
فكرة واحدة أخذته :
اتراها سترثي لحالي !
وليكن بعد ذلك ما يكون .

ان هذه الصور وامثالها التي وردت في الادب الاوربي ، كلهـا واردة في أدبنا العربي قبل ذلك بقرون . ان مجنون ليـلى يخبرنا في أغانيه ان ليلاه هي شغله الشاغل ، فهو لا يرى ولا يسمع سواها . يقول في ذلك :

وشغلت عن فهـم الحديث سوى ما كان منـك وحبـكم شغلي

---

(٦٦) Ibid., 294.
(٦٧) Chaucer, Op. Cit., 19.

واديم لحظ محدثي كيما يرى   أن قد فهمت ، وعندكم عقلي[٦٨]

ويضع المجنون نبلاه بمكانة بعد الله ، وذلك في قدرتها على اسعاده او اشقائه كما تشاء فهو يقول :

وانت التي ان شئت نغصت عيشتي
ولو شئت ـ بعد الله ـ اسعدت حاليا[٦٩]

وكما يصلي الشاعر الاوربي راكعا في محراب الحبيبة ، كذلك يصلي المجنون متخذا من دار ليلى قبلة لصلاته ، اذ يقول :

تراني اذا صليت يممت نحوها
بوجهي ، وان كان المصلى ورائيا[٧٠]

ونجد كذلك وصفا لحالة اللقاء وما يصيب المحب من ذهول حتى لينسيه ما كان يريد ان يقول ، وهو مطابق لما قرأناه في ادب الغرب تماما . يقول عروة بن حزام في هذا المعنى :

وما هو الا أن أراها فجاءة
فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأصدف عن رأيي الذي كنت ارتئي
وانسى الذي أعددت حين تغيب[٧١]

وجميل بن معمر اذ يلتقي ببثينة ، ينسيه جلال اللقاء ان يبثها آلامه وتباريح اشواقه . يقول في هذا المعنى :

واني لينسيني لقاؤك كلما   لقيتك يوما ، ان ابثك ما بيا[٧٢]

وهو لا يعير اذنا صاغية لمن يدعوه للمساهمة في الجهاد ، اذ ان له مع بثينة ما يشغله عن الجهاد . وفوق ذلك فهو يعتبر حبه جهادا

---

(٦٨) ديوان مجنون ليلى ، ٦٠ .
(٦٩) نفس المصدر ، ٢٩٣ .
(٧٠) نفس المصدر ، ٢٩٣ .
(٧١) الاغاني ، ٢٠ : ٣٧٣ .
(٧٢) ديوان جميل بثينة ، ١٢٢ .

يثاب عليه بالشهادة ، وهو المعنى الذي رأينا قبل قليل واردا في الادب الاوربي . يقول في هذا المعنى جميل بن معمر :

يقولون جاهـد يا جميل بغزوة وأي جهـاد غيرهـن أريد
لكل حديث عنـدهن بشاشة وكل قتيـل عندهن شهيد(٧٣)

ويذكر جميل محبوبته ويشغله ذكرها والحجيج بين ساع وموجف بين الصفا والمروتين . يقول جميل :

وبين الصـفا والمروتـين ذكرتـكم
بمختلف ، والناس سـاع وموجف (٧٤)

ويبكي حين يصلي ، لا من خشية الله ، ولكن من ذكره الحبيبة . يقول جميل في هذا :

اصلي فأبكي في الصلاة لذكرها لي الويل مما يكتب الملكان(٧٥)

والحبيبة ، كما حدثنا عنها الادب العربي ، ذات قدرة على اعادة الحياة وبعث الموتى . فليلى الاخيلية ، كما يحدثنا توبة ، تستطيع ان ترد الروح اليه ، وذلك ان سلمت عليه وهو تحت أطباق الثرى ، يقول توبة في ذلك :

ولـو ان ليـلى الاخيليـة سلمت
عليّ ، ودوني جنـدل وصـفائح
لسلمت تسـليم البشاشـة أو زقا
اليها صدى من جانب القبر صائح(٧٦)

وكثير يخبرنا بأن حديث عزة يجعل الرهبـان المتنسكين يخرّون

---

(٧٣) المصدر السابق ، ٣٣ .
(٧٤) نفس المصدر ، ٦٤ .
(٧٥) نفس المصدر ، ١٠٩ .
(٧٦) الامالي ، ١ : ٨٧ .

ساجدين الى الارض ، ولمستها تهب الحياة والخلود . يقول كثير :

رهبان مديـــن والذين عهدتهم　　يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كمـــا سمعت كلامها　　خروا لعـــزة ركعا وسجودا
والميت ينشـــر أن تمس عظمه　　مساً ويخلد أن يـراك خلودا(٧٧)

أما جميل فيتحدث عن ريق بثينة الذي هو اكسير الحياة ، يبعث الموتى من قبورهم ، اذ يقول :

مفلجة الاســـنان لو ان ريقهـــا
يداوى به الموتى لقامـوا من القبر(٧٨)

واما فوز فان ريقها له مفعول سحري اذ يقي من الســـقم ابـد الدهر ، يقول ابن الاحنف في ذلك :

تلــك التي لو ذقت من ريقها　　ما ذقت ســـقماً اخر الدهر(٧٩)

ونظرتها تجرحه وتداويه ، فهو يقول :

فيـا لــك نظــرة اودت بقلبي　　وخلف ســـهمها جسمي جريحا
فليت أمـيرتي جـــادت باخرى　　فكانت بعض ما ينكا القروحا(٨٠)

وتلك الحبيبة لها القدرة على أن تميته وتحييه ، اذ يقول :

ما أنصف المعشـــوق من عاشق　　ينـــام والعاشـــق يبكيـــه
يميتـــــه بالصـــد لكنما　　ليس بغـير الوصـل يحييه(٨١)

ان الامثلة والشواهد التي قدمناها في هذا الفصل لتشير الى ان

(٧٧) ديوان كثير عزة ، ٤٤١ .
(٧٨) ديوان جميل بثينة ، ٤٤
(٧٩) ديوان ابن الاحنف ، ١٤٣ .
(٨٠) نفس المصدر ، ٩٤ .
(٨١) نفس المصدر ، ٢٨٤ .

المحبوبة التي تحدث عنها كل من الادب الاوربي والعربي قبله ، لها صفات مميزة عن غيرها من النساء ، وتلك الصفات متشابهة كما جاءت في الادبين • فالمعشوقة في كليهما هي المرأة والمعبودة في وقت واحد اذ هي الانثى الساحرة بجمالها الجسدي ، والآسرة بظرفها ورقة حواشيها ، والمعذبة بتمنعها ودلالها • وهي في الوقت ذاته معبودة جديرة بالتفاني والولاء والعبادة سواء أوصلت أم صدت ، تأمر وتنهي في دنيا الحب ، تقدر أن تحيي وتميت ، تسعد وتشقي ، بين أيديها مفاتيح الجنة والنار •

الفصل الرابع

الرجل

حين نكتب عن الحب ونتحدث عن دور المرأة فيه ، فنحن نفعل ذلك بوحي مما قاله الرجال في ذلك . لان الرجل هو الصوت الذي نسمع من خلاله همسات الارواح وخفقات القلوب ، الرجل في دنيا الحب هو المنعم والمتنعم ، ينصب المرأة ملكة ، وينتظر ان تهبه كل ما تملك . يتعبد في محرابها وينتظر ان تدخله الجنة ، وهو في انتظاره وفي تعبده ودموعه واصطباره ، في لحظات صفائه وليالي شقائه ، يغني - فتغني معه البشرية . الرجل في دنيا الحب الذي نحن بصدده في هذا البحث ، هو شاعر يحول الآهات والدموع والبسمات الى قصائد تخلد فتمنحه الخلود . وان ما ذكرناه في معرض حديثنا عن ازدواجية طبيعة الحب ، لنابع من طبيعة استجابة الرجل ومن مواقفه تجاه ذلك الحب ، وتلك الاستجابة ذات جانبين يتمم احدهما الاخر ، فجانب يتمثل في رغبة الرجل في امتلاك المرأة جسديا ، وجانب يتمثل في التعفف والاكتفاء بالقليل الذي يغني عن الكثير بنظر اولئك العشاق وهذا الجانب وذاك كلاهما وارد في التراث الاوربي وفي التراث العربي الذي سبقه كما سنرى في الامثلة المقارنة التي سنقدمها فيما يلي .

العين والقلب

ان اقوال الشعراء العشاق التي ذكرناها في الفصل السابق لتكشف ان جمال المرأة مسبب الحب وداعيه الاول ، اذ غالبا ما يتحدث العشاق عن سهام العيون التي تخترق القلوب وتخلب الالباب ، وكثيرا ما يخبرون عن الابتسامات التي تسحر الافئدة . يقول التروبادور غليوم دي كابستانغ في هذا المعنى :

حين رأيتك لاول مرة ، أو حين سمحت لي ان

أراك يا سيدتي ، نسيت ما كان من امري ، اذ
علقت رغباتي كلها فيك ، وتمكن الشوق مـن
قلبي بابتسامة حلوة ونظرة ، فجعلني أنسى كل
ما هو كائن ، سواه[1] .

اما بيرول فهو يعرب عن المعنى نفسه حين يقول متحدثا عن أثر النظرة الاولى :

لقد غمرني السرور وانا انظر اليها لاول مرة ،
وما كان باستطاعتي ان استعيد القلب الـــذي
سلبته ، فقد كان معهـــا منذ ذلـــك الحين ،
وما زال[2] .

وهناك تروبادور يتشكى من عدوين تآمرا للقضاء عليه ، هما قلبه وعينه ، فالعين رأت والقلب عشق . يقول الشاعر :

شريران قد تآمرا ضدي ، وهما يعملان ليل نهار
للقضاء عليّ ، همـــا قلبي وطرفي ، فقد جعلاني
اشتهي من هي ليست لي[3] .

ويتناول جوسر هذا المعنى ، فيخبرنا ان نظرة كرسيدا قد أثارت الحب والرغبة في قلب ترويلس ، وطبعت فؤاده بطابع الهوى الـــذي لا يزول . يقول جوسر[4] :

But soon her eyes again grew soft and bright,
Which seemed to Troilus a goodly sight.

From eyes to heart in Troilus there passed

---

(١) Kirby, Op. Cit., 293.
(٢) Ibid., 294.
(٣) Valency, Op. Cit., 152.
(٤) Chaucer, Op. Cit., 13.

So great a longing, through this vision bred,
That in his deepest soul, fixed firm and fast,
This lady's image love did now imbed.

والتمعت عيناها بنعومة ودفء
فاثيرت شجونه ،
ومن العين الى القلب
مر سهم
فاصاب حبته ،
ورسم صورة كرسيدا في صميمه .

وحين كتب اندرياس كتابه عن الحب ، أشار الى تلك الحقيقة في دنيا الحب ، فقال : « يحدث غالبا ان الحب يتمركز في القلوب نتيجة النظرة الاولى » . وذكر الكاتب في مكان اخر من كتابه قوله : « ان الرجل حين يبصر المرأة اللائقة بحبه والمصورة كما يتطلب ذوقه ، يشتهيها قلبه في الحال »[٥] .

هذا بعض ما ورد في التراث الاوربي عما يسببه النظر الى المرأة الجميلة من اثارة للشوق والرغبة في قلب الرجل . اما تراثنا العربي . فعلى الرغم من وجود ما يشير الى ان بعض قصص الحب بدأت والعاشقان صغيران يعيشان معا ، الا ان معظم الروايات ، وحتى ما يتعلق بمجنون ليلى نفسه – تشير الى ان الرجل يرى من هي اجمل النساء وأظرفهن ، فيعلقها قلبه[٦] . والشعراء العشاق يحدثوننا عن سهام العيون التي تجرح الافئدة وتدمي القلوب . وقد تناولت معانيهم في هذا الباب جميع الاتجاهات التي وردت في الشعر الاوربي الذي ذكرنا منه نماذج أعلاه . فان جميل بثينة يذكر ان الحبيبة صادت

(٥) Andreas, Op. Cit., 29.
(٦) الاغاني ١ : ٨٣ ، ٧ : ١٤٥ ، ٨ : ٧١ ، ٢٠ ، ٢١٩ .

فؤاده بنظرة وابتسامة ، اذ يقول :

صادت فؤادي بعينيها ومبتسم   كأنه حين أبدته لنـــا برد[٧]

ويتحدث جميل بن معمر عن السهم الذي أدمى القلب من غير ان يترك آثاره على الجلد ، فيقول :

رمتني بسهم ، ريشه الكحل لـــم يضر
ظواهر جلدي ، فهو في القلب جارحي[٨]

ويذكر الشاعر العربي النظرة والابتسامة وما تتركان في النفس من أثر ، فيقول :

فمـــا هي الا نظرة فتبســـم   فتصطك رجلاه ويسقط للجنب[٩]

ويخبرنا ابن الاحنف عن النظرة التي كانت سبب بلائه وفاتحة شقائه فيقول :

ومستفتح بـاب البـــلاء بنظرة   تزود منها حسرة آخر الدهـــر
فوالله ما يدري أتدري بما جنت   على قلبه او أهلكته وما تدري[١٠]

ويخبرنا الشاعر نفسه عن سهام العيون التي خلفت القلب جريحا وأورثت الجسد السقام ، وذلك في قوله :

ايـــا لك نظـرة اودت بقلبي   وغـــادر سهمها جسمي جريحا
فليت أميرتي جـــادت باخرى   فكانت بعض مـا ينكا القروحا
فامـــا ان يكون بهـــا شقائي   وامـــا ان أمـوت فاستريحا[١١]

---

(٧) ديوان جميل ، ٤٠ .
(٨) المصدر نفسه ، ٢٣ .
(٩) مصارع العشاق ، ٢ : ٢٩٢ .
(١٠) ديوان ابن الاحنف ، ١٦٦ .
(١١) نفس المصدر ، ٩٤ .

ويحدثنا الشاعر العربي حديث صاحبه الاوربي الذي ذكرناه قبل قليل ، عن العدوين اللذين تآمرا على اتلاف حياته ، العين والقلب ، اذ يقول :

انا ما بين عدوين همـا قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى القلب والمقصود حتفي[١٢]

اما ابن زيدون فيخبرنا عن النظرة التي كانت على موعد مع الموت ، اذ انها علمته كيف يحب وكيف يموت من الحب . يقول الشاعر :

امـا الضنى فجنته لحظة" عنن"
كأنهـا والردى كانا على قدر
فهمت معنى انهوى من وحي طرفك ني
ان الحوار لمفهوم من الحور[١٣]

ويفرد ابن حزم الاندلسي بابا من كتابه الذي ذكرناه (طوق الحمامة) ويسمي ذلك الباب (باب من احب من نظرة واحدة) ، يقول في مستهله : « وكثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة »[١٤] .

ان الامثلة المذكورة اعلاه تبين لنا ان الحب الذي تحدث عنه كل من تراثنا والتراث الاوربي هو حب مبعثه النظر الى الانثى الجميلة نظرا يؤجج الرغبة والشوق الى تلك المرأة ، ويعبر العشاق عن اشواقهم ساهرين باكين ، ومتطلعين الى فرصة اللقاء التي تبل الاكباد وتشفي الافئدة وسنقدم للقارىء أدناه أمثلة من الادبين الاوربي والعربي تظهر التشابه في هذا المجال .

---

(١٢) روضة المحبين ونزهة العشاق لابن قيم الجوزية ، ١١٠ .
(١٣) ديوان ابن زيدون ، ١٥ .
(١٤) طوق الحمامة ، ٢٠ .

اشواق وهموم

يشغل الحديث عن اشواق العشاق وهمومهم حيزا كبيرا من كتب التراث في عالمنا العربي وفي أوربا على الســـواء • ويتفنن الشعراء في وصف تلك الاشواق وسرد تلك الهموم والآلام التي تنتابهم وتقض مضاجعهم بسبب الحب والرغبة في لقاء من يحبون ، يقول التروبادور بالازول ان الشوق الى المرأة التي يحبها قد طغى واستحوذ عليه فلم يعد يأبه للابتسامة الحلوة واللياقة والظرف والتعقل ، لانه طامح ومتطلع الى المزيد ، ويضع الشاعر هذه المعاني كما يأتي :

الحكمة واللياقة والظرف والابتسامات الحلوة ،
هذه الاشياء التي كانت تجد لها مكانا في قلبي ،
لم تعد تســرني كثيرا • ما لـــم تتعطفي عليّ
فتقبليني ، قبـــل ان أموت من الشوق الذي
يهاجمني ويطغى[١٥] •

وبرنارد يخبرنا ا ن الشوق يكاد ان يقتله ، اذ يجسم له ملـــذات الهوى في حين ان نوال تلك الملذات ليس بالمؤكد • يقول التروبادور :

شوقي الطاغي يقتلني ، انه يجسم أمــامي متــع
الحب المغـــرية ، ولا يراعـــي ان كان الحبيب
سيوليني رضى ام لا[١٦] •

ويصـــرخ الشاعر مستغيثا : « اواه ، هـــا اني امــوت من الشوق »[١٧] • ثم يسأل حبيبته قبلة واحدة لعلها تطفىء النار المتأججة في فؤاده ، فهو يقول :

---

(١٥) T. Newcombe, Op. Cit., 63.
(١٦) Bernard, Op. Cit., 115.
(١٧) Ibid., 174.

يا سيدتي الجميلة الطيبـــة ، هـــل من فرصة
تمنحينني بها قبلة واحدة ، ان لم تكن من اجل
شيء ، فمن اجل هذا الشوق العظيم الـــذي
احسه[١٨] .

ويخبرنا جوسر ان آلام الحب لم ترحم الامير الفـــارس ترويلس ولم تستثنه ، فقد كان يضطرم بنار الشوق فتتغير الوانه عشرات المرات في اليوم . يضعها جوسر كما يلي[١٩] :

No favor to his royal rank love showed,
For from this flame no rank can ever save,
Nor parted from his customary mode,
For all he was a knight so bold and brave,
But held him in distress as thrall and slave,
And burned him in so many ways and new,
That sixty times a day he changed his hue.

لم يرحم الحب الأمير
ولم تغن الرتب ،
ولا جنبت صاحبها هذا المصير ،
كان ترويلس فارساً شجاعا
الا ان الحب طوعه
ولوعه بحرقه ولوعاته
وغير الوانه .

ولو نحن عدنا الى تراثنا العربي ، لوجدنا اشياء مماثلة قد قيلت . فجميل يشكو الظمأ اللاهب الذي لا يبله الا ريق الحبيبة ، اذ يقول :

ومـــا زلت بي يا بثن حتى لـــو انني
من الوجد ، استبكي الحمـــام بكى ليا

(١٨) Ibid., 123.
(١٩) Chaucer, Op. Cit., 18.

ألم تعلمي يا عـــــذبة الريـــــق انني
اظل اذا لـم ألـــق وجهك صاديا ؟[٢٠]

ويصور جميل في مكان اخر صورة من الصحراء تعبر عما يقاسيه من حرارة الشوق ومرارة الحرمان ، فيقول :

ومـــا صاديات حمن يوما وليلة   على الماء ، يغشين العصي ، حواني
لواغب لا يصدرن عنـــه لوجهة   ولا هن من بـــرد الحياض دواني
يرين حباب المـــاء والموت دونه   فهن لاصوات الســـقاة رواني
باكثر مني غـــلة وصـــبابة   اليك ، ولكن العـدو عداني[٢١]

ويجد كثير نفسه بعد ان اصابه سهم الحبيبة ، كمن ضربته الشمس فانفرد وحيدا تحوم حوله عطاش الطير ، او كمن لذعته حيـة عطشى ، فاصابه منها غشي بعد غشي ، وكثير في ابياته هذه يواتينا بأقسى صور العطش والحرقة والحرمان ، حيث يقول :

اصابتك نبـــل الحاجبية انهـا   اذا مـــا رمت لا يستبل كليمها
كأنك مردوع من الشمس مطرد   يفارقه من عقـــدة البقـع هيمها
اخو حيـــة عطشى بأرض ظميئة   تجلل غشيا بعد غشي سليمها[٢٢]

ويخبرنا ابن الاحنف ان شوقه قد بلغ مدى لا يعلمه الا الله ، ثم يستصرخ الحبيبة طالبا الرحمة وبل الغلة ، فيقول :

واشـــتاق فلا يعلـم   الا الله مـــا ألقى
الا من يرحـم الظمآن   يستسقي ولا يسقى[٢٣]

---

(٢٠) ديوان جميل بثينة ، ١٢١ .
(٢١) نفس المصدر ، ١١٠ .
(٢٢) ديوان كثير عزة ، ١٤١ .
(٢٣) ديوان ابن الاحنف ، ١٧ .

ان هذا الحب والشوق والرغبة مع الحرمان ، كلها اسباب داعية الى كآبه المحبين وغمهم وسهرهم ودموعهم وفقدان رشدهم وغير ذلك من علامات الحب ومظاهره التي نجدها شائعة بين المحبين في الغـرب والشرق معا . يقول برنارد واصفا آلامه وسهره :

لا أعرف كيف افر من هــذه الافكار المؤلمة
التي تنتابني وتجعلني اجـافي رقادي ، فأقضي
الليل أتقلب على سريري ، أو ادور حـول ذلك
السرير[٢٤] .

ويمضي التروبادور متأوها فيقول : « أتأوه وابكي من قلبي ، لان حبها غرس الالم في صميمي »[٢٥] .

ويخبرنا برنارد ان ما قاساه في الحب لم يسبق لغيره من مشاهير العشاق ان لقي مثله ، يقول :

لقد تحملت الكثـير من آلام الحب ، وقاسيت
اكثر مما قاســاه تريستان في حبـــه ايزولت
الشقراء[٢٦] .

ويصف جوسر آلام ترويلس ودموعه وسهره ومرضه ، كعلامات ميزته وجعلته في عداد كبار العشاق المعروفين الذين سبقوه ، يقول جوسر[٢٧] :

And love that made bold, made him to sleep
The less, and still his multiplying sorrow
Such hold upon his heart and soul doth keep,

---

(٢٤) Bernard, Op. Cit., 21.
(٢٥) Ibid., 134.
(٢٦) Ibid., 171.
(٢٧) Chaucer, Op. Cit., 20.

It stood reveated with each returning morrow
Upon his face, and he was fain to borrow
The name of other ill, lest men might know
It was the fire of love that changed him so.

الحب الذي ضاعف شجاعته ،
ضاعف ألمه وشجنه .
جعله لا ينام الا قليلا
بدا واضحاً على سيماه
لا يخفى ولا يدارى عن العيون
تغير ترويلس بفعل الحب .

ويشترك العشاق في الشرق والغرب بتصوير انفسهم وكأنهم اسرى ، او ان حبالة نصبت فاصطادتهم . ونرى وفقا لذلك ، ان ترويلس بطل جوسر ، يلوم نفسه لحمقها الذي ورطها في مصيدة ، وقيدها بقيود لا فكاك منها ولا خلاص . يقول جوسر على لسان ترويلس(٢٨) :

But in his moments of relief from care,
Thus to himself he often would complain,
And say, "O fool, now art thou in the snare,
Who once did jest at love and all its pain!
Now art thou caught! Now go and gnow thy chain!
Thou once wert wont that love to reprehend
From which thyself thou const not now defend.

في لحظات عزائه
كان يحدث نفسه :
ايها المجنون ، ها انت ذا في الأسر
جزاء ما كنت تهزأ بالمحبين ،

---

(٢٨) Ibid., 21.

لقد وقعت في الفخ
انت الذي طالما عذلت الاخرين ،
انه قدرك ، وانت عاجز مكتوف .

والتروبادورز يتناولون المعنى نفسه في أغانيهم ، اذ ان برنارد يخبرنا بأنه يتفانى في حب المرأة التي صنعت سجنه ، يقول الشاعر :

أعانق حبها الذي أسرني ، واتفانى من أجلها ،
تلك التي صنعت سجني الرهيب(٢٩) .

ويقارن الشاعر نفسه بسمكة دفعها جهلها وحمقها الى الوقوع في شبكة الصياد ، يقول في هذا :

كنت كسمكة دفعها الطيش والحمق الى الطعم ،
فلم تشك في شيء حتى علقت بالشص ، هكذا
تركت نفسي وما حذرت ، حتى رأيتني في لهب
يحرقني ، كأقوى ما يكون عنيه اللهيب(٣٠) .

ويؤكد الشعراء العشاق انهم راضون باسرهم ، وانهم لا يريدون الفكاك من قيودهم ، وان آلام الحب مهما قست ، وصبرهم مهما طال فهم لا يطلبون الخلاص . يقول التروبادور :

لا أتخلى ، ولن اتخلى عن الحب مهما قاسيت من
آلام ، ومهما تحملت من مصائب(٣١) .

ويقول بالازول مخاطبا الحبيبة ومؤكدا لها انه راض بأسره ، ولسوف يمتنع عن دفع الفدية كي لا يخرج ، فهو يفضل البقاء سجينا . يضعها التروبادور كما يلي :

لقد اسرتني ، ومع هذا فلا تطمعي يوما بفدية ،

---

(٢٩) Bernard, Op. Cit., 66.
(٣٠) Ibid., 73.
(٣١) Ibid., 31.

فانا أفضل ان أبقى أسيرك ، ولو اني ما عرفت
– قبلي ، أسيرا لا يصبو الى الحرية(٣٢) .

ان هذه المعاني والصور التي احتواها التراث الاوربي موجودة في تراثنا العربي الذي سبقه بقرون . فالعاشق ، كما صوره لنا التراث العربي ، يقاسي آلام الحب واوجاع الشوق وتباريح الحزن ، ويصف آهاته ودموعه وسهره وسقمه ، ويتحدث عن السجن والاسر والقيود والمصائد ، ويخبرنا في الوقت نفسه انـه لا يرغب الفكاك ولا يهوى الخلاص ، لان الحب قدره وهو راض به .

يقول قيس بن ذريح في احدى قصائده ، شاكيا همومه وسهره ، وذاكرا آيات الحب التي تفضح العاشق ، ومتحدثا عن غربته حين تكون لبنى بعيدة عنه :

نهاري نهـــار النـاس حتى اذا ... دجا الليل هزتني اليـك المضاجع
أقضي نهـاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليـــل جامع
وللحب آيـــات تبـين بالفتى ... شحوب وتعرى من يديه الاشاجع
وجانب قرب الناس يخلـو بهمه ... وعاوده فيهـا هيـــام مراجع
كأن بلاد الله ما لـــم تكن بها ... وان كان فيها الخلق قفر بلاقع(٣٣)

ويصف جميل بن معمر حرقــه وزفيره ، ويتحدث عن سـهره ودموعه ، ويتوجه الى الله شاكيا ، اذ عجز عبـاد الله عن الاستجابة لشكواه ومساعدته على بلواه ، وهو يشبه نفسه بأسير رهن القيود .
يقول جميل :

الى الله اشكو ما الاقي من الهوى ... ومن حـــرق تعتـــادني وزفير
ومن كرب للحب في باطن الحشا ... وليل طويـــل الحزن غير قصير

(٣٢) Newcombe, Op. Cit., 67.
(٣٣) الامالي ، ١ : ٣١٦ – ٣١٧ .

سأبكي على نفسي بعين غزيرة بكاء حزين في الوثاق أسير(٣٤)

ويتحدث جميل عن حبائل بثينة التي صادت فؤاده ، بينما اخطأت حبائله الهدف فتركت الحبيبة طليقة • يقول جميل :

صادت فؤادي يا بثين حبالكم يوم الحجون ، واخطأتك حبائلي(٣٥)

ويقول في مكان اخر مشبها نفسه بمن اقتيد الى الاسر مغلول اليدين لا حول له ولا قدرة على دفع الاذى عن نفسه • يضعها ابن معمر كما يلي :

الا قاتل الله الهوى كيف قادني كما اقتيد مغلول اليدين أسير(٣٦)

وجميل يذكر العشاق الذين قضوا وجدا من قبله ، ولكنه يجد ان هواه قد فاق هواهم وصبابته قد تعدت حدود صباباتهم • يقول جميل :

قد مـــات قبلي اخــو نهد وصاحبه
مرقش واشتفى من عـــروة الكمـــد
وكلهـــم كان من عشـــق منيتـــه
وقد وجدت بها فـوق الذي وجدوا(٣٧)

ويشبه المجنون هلع قلبه وذهاب لبه ، مع قلة حيلته وضعف وسيلته عند فراق ليلى ، بحال قطاة علق جناحها بشرك وهي تحاول عبثا الفكاك منه • يقول مجنون ليلى :

كأن القلب ليـــلة قيـــل يغدى بليـــلى العـــامرية أو يراح
قطاة غرهـــا شـــبك فباتت تجاذبه وقد علـــق الجناح(٣٨)

---

(٣٤) ديوان جميل بثينة ، ٥١ •
(٣٥) نفس المصدر ، ٨٧ •
(٣٦) تزيين الاسواق ، ٢ : ٥٧ •
(٣٧) ديوان جميل بثينة ، ٣٦ •
(٣٨) الاغاني ، ٢ : ٥ ، تزيين الاسواق ، ٢ : ٦٧ •

ومجنون ليلى ، في حالة كالتي وصفها ، يشبه القطاة ألماً وحيرة وقلقاً ، ولكنه يخالفها من حيث كونه راضيا بل ومستزيدا لما هو فيه • فقد ذكر ان اباه اخذه يوما الى الكعبة وطلب منه ان يدعو الله كي ينسيه ذكر ليلى ، وجعله يمسك باستار الكعبة وقال له : قل ، اللهم انسني ذكرها وامح من قلبي حبها • فقال المجنون وهو متعلق باستار الكعبة : اللهم اجمعني بها وارزقني حبها ، وزدني بها كلفا ، وفيها تلفا[٣٩] •

ويقارن المجنون ما يلقاه بما لقيه العشاق من قبله ، فيرى أن عذابه اشد ، وانه يلقى الموت يوميا ان لقيه العشاق مرة واحدة • يقول مجنون ليلى :

عجبت لعـــروة العـــذري أمسى   احاديثاً لقـــــوم بعـــــد قوم
وعروة مـات مـــوتا مستريحاً   وهـــا انا ذا أموت كل يوم [٤٠]

ويصف لنا ابن الاحنف جفاءه الفراش وليله الذي يمضيه بـين الحسرة والعبرة ، فيقول :

تجافى مرفقـــاي عـن الرقاد   كأن بـــه منـــابت للقتـــاد
وبـاتت تمطـــر العبرات عيني   وعين الدمـع تنبت في فؤادي[٤١]

ويؤكد ابن الاحنف ان صبوته بالحبيبة اعظم من صبوة الذين سبقوه ، وان حبه اياها اعظم من حب جميل بثينة • يقول الشاعر :

ما أن صبا مثلي جميـــل فاعلمي   حقا ولا المقتـــول عروة اذ صبا
لالا ، ولا مثلي المرقش اذ هوى   اسماء للحين المحتـم والقضا[٤٢]

اما ابن زيدون فيصف لنا في نونيته الشهيرة لواعج الألم والشوق

---

(٣٩) تزيين الاسواق ، ٢ : ٧٠ •
(٤٠) المصدر نفسه ، ٢ : ٦٥ •
(٤١) ديوان ابن الاحنف ، ٩٧ •
(٤٢) نفس المصدر ، ١٥ •

وآلام البعد ، ويتحدث عن النعيم الذي صار أسى ودموعا • يقـول ابن زيدون :

بنتم وبنا فمـــا ابتلت جوانحنا شـــوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
نكـاد حـين تناجيكم ضـمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسـينا
حالت لفقـــدكم أيامنـا فغـدت ســودا وكانت بكم بيضا ليالينا
يا جنة الخلد ابدلنـــا بسلسلها والكوثر العذب زقومـا وغسلينا

ويؤكد الشاعر للحبيبة ان أساه مهما طال فان ذلك لن يثنيه عن حبها ولن يتطلع الى سلو او بديل • يقول ابن زيدون :

اما هـــواك فلم نعـــدل بمنهله
شـــربا وان كـــان يروينـــا فيظمينا
لـم نجف افق جمـــال انت كوكبه
سالين عنـــه ولـــم نهجره قالينا
ولو صبا نحـونا من علـــو مطلعه
بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا(٤٣)

ومن ظريف ما ورد في تراثنا عن العشاق الذين يأبون السلو ، ويستزيدون من ألم الحب وعذابه ، قصة يرويها لنا ابن حزم عن احد معارفه ، فيقول :

ولقد علمت ان فتى من بعض معارفي قد حل به الحب ، وتورط في حبائله ، فأضر به الوجـد ، وأنضحه الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء الى الله عز وجل في كشف ما به ، ولا ينطلق به لسانه ، وما كان دعاؤه الا بالوصل والتمكن ممن يحب على عظيم بلائه وطويل همه • فما الظـن بسقيم لا يريد فقد سقمه ! ولقد جالسته يومـا

(٤٣) ديوان ابن زيدون ، ٩٢ ـ ٩٥ •

فرأيت من اكبابه وسوء حاله واطراقه ما اساءني ،
فقلت له في بعض قولي : فرج الله عنك ، فرأيت
أثر الكراهية في وجهه لما قلت(٤٤) •

ان العاشق ، كما رأيناه في النماذج المقدمة من التراثين العربي والاوربي ، رجل مغلوب على أمره ، يعيش رهن آلامه واوجاعه وسهره ودموعه ، كما يعيش الاسير رهن أسره ، الا ان هذا العاشق راض بما هو فيه ، يفخر بانه قد سبق الاولين في مجال العشق والاذى ، وهو لا يرجو البرء مما هو فيه ولا يتوق الى الخلاص او يتطلع الى الحرية • وكل ذلك يجره الى اسوأ العواقب كما سنرى ادناه •

ذهول العشاق وجنونهم

ان العاشق الذي يقاسي من الحب والشوق والحرمان ، ويغرق في مقاساته ، فلا يستطيع ، بل لا يريد عزاء أو بديلا عن حبيبته ، وانما تتملكه فكرة واحدة وصورة واحدة ، ذلك العاشق سرعان ما يفقـــد توازنه الفكري ويصاب بالذهول والبلبلة والارتباك • يقول برنارد في ذلك :

انا مرتبك الفكر ، مبلبل العقل ، وذلك بسبب
الحب الذي يلازمني ويوثقني ويملك عناني في
كل مكان أتوجه اليه(٤٥) •

ويصور لنا برنارد حالة الشرود والذهول التي ألمت به فجعلته لا يعي شيئا من الدنيا • يقول الشاعر :

أواه ! سيقتلني الارتباك والذهول حتى لأخشى
جادا ان يحملني اللصوص فيبعدوني عن داري

---

(٤٤) طوق الحمامة ، ١٠ •

(٤٥) Bernard, Op. Cit., 88.

وانا لا أدرك ما هم فاعلون(٤٦) .

ويخبرنا المختصون بأدب العصر الوسيط ان ارتباك عقول العشاق وذهولهم وهيامهم على وجوههم كالمجانين كانت ظواهر متفشية في الادب الاوربي آنذاك . فان تريستان حين فقد الأمل برؤية ايزولت الحسناء ، هام على وجهه في الغابات ، يفترش الارض ويلتحف السماء ويأكل الحشائش وأوراق الشجر . أما الحبيبة ايزولت فقد اعترفت ان زوجها وحبيبها كليهما لم ينالا منها سوى حمى في العظام . وحين سمعت بان تريستان موشك على الموت ، عافت ملكها وتاجها ، وهرعت الى مكانه فرمت بنفسها فوق جسده الهامد ، وفارقت الحياة(٤٧) . وقد كان جوسر مدركا هذه الفكرة حين كتب حكاية ترويلس وكرسيدا ، فكان ترويلس كبقية العشاق الذين عرفهم الشاعر الانكليزي في الاشعار والاخبار والحكايات المتداولة في الادب الاوربي . لقد صور الشاعر بطل حكايته مأخوذا أسير فكرة واحدة هي حبه كرسيدا الذي يلازمه في كل أوقاته وحيثما توجه . يقول جوسر(٤٨) :

But were he farther off or were he nigher,
The eye of the heart that in the breast doth lie,
By day or night, with courage low or high,
Was still on her,...

في بعد أو قرب
في حاضر أو مغيب
كان يبصرها بعين القلب
وكان يراها في كل درب .

---

(٤٦) Ibid., 155.
(٤٧) Dodd, Op. Cit., 187.
J. Masefield, Tristan and Isolt, 114-133.
(٤٨) Chaucer, Op. Cit., 19.

وتبلغ الحال بالعاشق مبلغا شبيها بالجنون ، اذ يندفع الى غرفته فينطرح ارضا ، لاطما صدره بجمع يده ، وضاربا الحائط برأسه ، كما يفعل المخبول • يقول جوسر[٤٩] :

So Troilus doth from his bedside start,
And beat his breast, and here and yonder dart,
Striking his head full hard against the wall,
And to the floor his body oft doth fall.

كان يدور حول السرير
يضرب صدره بجمع يده
وينطح برأسه الجدار
ويرتمي متدحرجا على الارض •

اما في تراثنا العربي ، فقد عرفت مثل تلك الظاهرة قبل ذلك التاريخ بعدة قرون • واخبار العشاق الذين مرضوا وماتوا او جنوا وهاموا على وجوهم اكثر من ان يحصيها كتاب • ويذكر ان عروة بن الزبير قال لرجل من بني عذرة : يا هذا ، بحق اقول لكم انكم أرق الناس قلوبا • فقال العذري : نعم والله ، لقد تركت بالحي ثلاثين قد خامرهم السل وما لهم داء الا الحب[٥٠] • ومن مشاهير العشاق الذين نذكرهم بهذا الخصوص عروة بن حزام : احب عروة عفراء ، فأخذه الهلاس وقالوا به جنة ، فأخذوه الى عراف اليمامة وعراف حجر لمعرفة ما به وعلاجه • ويخبرنا عروة في اشعاره ان حبه عفراء كان السبب في انصراف فكره ، وان لا فائدة ترجى من العرافين • يضعها عروة كما يلي :

وقد تركتني لا أعي لمحدث   حديثا وان ناجيته ونجاني

---

(٤٩) Ibid., 187.

(٥٠) مصارع العشاق ، ١ : ٤٢ ، وانظر المصادر العربية في آخر الكتاب

جعلت لعـــراف اليمامـــة حكمه ... وعـراف حجر ان همـــا شفياني
فمـــا تركا من حيـــلة يعرفانها ... ولا شـــربة الا وقـــد سقياني
وقالا : شـــفاك الله والله ما لنا ... بما ضمنت منك الضلوع يدان

قيل : وما زال في هذيان وقلق لا يتناول قوتا حتى شفت عظامه ومات ، وبقيت عفراء تندبه حتى قضت فدفنت الى جانبه(٥١) .

وهناك قيس بن ذريح الذي احب لبنى فتزوجها . الا ان قصص الحب الذي نحن بصدده في دراستنا هذه ، لا تنتهي بالزواج كما ذكرنا سابقا . ذلك لان أبوي قيس رغبا في التفريق بين ابنهما وزوجته لبنى ، وانهما عرضا عليه ذلك ، فامتنع امتناعا يؤذن باستحالة ذلك ، واقام يدافعهما عشر سنين ، الى ان اقسم ابوه الا يكنه سقف او يطلق قيس لبنى . فكان اذا اشتد الهجير يجيئه فيظله بردائه ويصطلي هو حتى يجيء الفيء ، فيدخل الى لبنى فيتعانقان ويبكيان وهي تقول له لا تفعل فتهلك ، الى ان قدر ان يطلقها . ولما اشتد شوقه وزاد غرامه ، افضى به الحال الى مرض الزمه الوساد واختلال العقل واشتغال البال . وهو يقول في ذلك :

بانت لبينى فانت اليـوم متبول ... والرأي عندك بعد الحزم مخبول(٥٢)

اما المجنون ، فسواء أكان عاشقا واحدا معينا هو قيس بن الملوح العامري ، ام كان اسما مستعارا منتحلا لشعراء اخرين رموا بالعشـق والجنون ، فان مجمل الاخبار والاشعار يؤكد لنا ان السل والشرود والجنون لم تكن امورا عارضة ، وانما كانت ظواهر سائدة يرويهـا الرواة ويعرفها الثقات ويتناقلها الناس آنذاك . فقد روي عن الاصمعي ، قال : سألت اعرابيا من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري .

---

(٥١) الشعر والشعراء ، ٢ : ٥١٩ـ٥٢٠ ، تزيين الاسواق ١ : ٨٥ .
(٥٢) تزيين الاسواق ، ١ : ٥٣ ـ ٥٥ ، الاغاني ، ٨ : ٢٢٨ وما بعده

فقال : عن ايهم تسألني فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون • فقلت : اسأل عن الذي كان يشبب بليلى ، فقال : كلهم كان يشبب بليلى ، قلت فأنشدني لبعضهم • قال : فأنشدني اشعارا لمزاحم بن الحرث المجنون ومعاذ بن كليب المجنون • فقلت : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت ، فأنشدني لابن الملوح • فقلت : فأنشدني لمن بقي من هؤلاء ، فقال : حسبك ، فوالله ان في واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم[٥٣] •

وذكرت بعض المصادر ان المجنون صاحب ليلى العامرية هو قيس بن الملوح العامري ، وقد ناله الهزال وتغير الحال والجنون بسبب العشق ، وانتهى به اليأس الى الهيام على وجهه في البادية مع الوحش ، لا يأكل الا ما ينبت في البرية من بقل ، ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها ، لا يثوب عقله الا على ذكر ليلى ، حتى قضى عشقا • واشعار المجنون تكشف عن ذلك • فهو يذكر لنا السبب الذي رمي من اجله بالجنون ، فيقول :

يسمونني المجنون حين يرونني نعم ، بي من ليلى الغداة جنون

ويقول في مكان اخر :

يهوي بقلبي حديث النفس نحوكم حتى يقول جليسي أنت مخبول

وينسيه الهوى نفسه ، فيذهل عن واجبه نحو ربه ، فلا يعود يتذكر مواعيد صلاته ، فيقول :

اصلي فلا أدري اذا ما ذكرتها اثنتين صليت الضحى ام ثمانيا[٥٤]

ان الاخبار والاشعار التي تتحدث عن مرض العشاق وجنونهم

---

(٥٣) خزانة الادب ، ١ : ٣٧٤ ـ ٣٧٥ •

(٥٤) تزيين الاسواق ، ٢ : ٦٤ ـ ٨٣ ، خزانة الادب ، ١ : ٣٧٤ـ٣٧٥ الاغاني ، ١ : ٥٩ ، وانظر ديوان مجنون ليلى تحقيق فراج •

وموتهم في سبيل الحب كثيرة كما قلنا • وان ما ورد منها في التراث الاوربي مشابه لما ورد في تراثنا العربي كما توضح الامثلة المقارنة التي قدمناها أعلاه من التراثين •

متع الحب ومنغصاتها

ان المحن والمصائب والغموم التي أتينا على ذكرها ، لم تكن كل ما تحويه دنيا الحب ، بل هناك من المتع واللذات والمباهج ما يعمر تلك الدنيا ، ويحيل أساها غبطة ودموعها بسمات وجحيمها نعيمها • ذلك ما يكشفه لنا تراث اوربا وتراثنا العربي معا حين يوردان قصص الحب واخباره واشعاره • ان متع الحب ومباهجه تتمثل في الامال الحلوة والوعود الشهية ، وفي الرسائل وتبادل الاخبار مع الوسطاء ، واخيرا في اللقاء وهو غاية المتمني • ان هذه المتع والمباهج ، وان كانت عظيمة ، الا انها تفتقر الى الاساس الذي يجعلها كاملة ، ذلك انها تفتقر الى الامان • فالعاشق خائف في كل حين ، وخوفه ناجم عن احد هذين العاملين : العامل الاول الذي ينتقص من كمال سعادة المحبين هو خوف العشاق الدائم من الوشاة والرقباء والحساد والنمامين وامثالهم ، وقد نتج عن هذا الخوف مبدأ السرية في الحب ، وهذا المبدأ يلجأ اليه العشاق ليتحاشوا الالسن المسمومة • اما العامل الثاني فيعجز العشاق عن تلافيه ، وهو كون سعادتهم في الحب سعادة دنيوية أرضية ، وكل ما هو أرضي ودنيوي لابد صائر الى الزوال • تلك هي الفكر والمفاهيم التي وردت في تراثنا العربي وفي التراث الاوربي متماثلة تكشف لنا عن جانب اخر من جوانب العشق كما سترينا الامثلة التي سنعرضها من التراثين •

ان العاشق الذي يقاسي ما يقاسيه في سبيل الحب حزنا وسقما وتسهيدا وجنونا ، هذا العاشق على الرغم مما هو فيه ، ليس بيائس • انه يحتمل ألم البعد آملا اللقاء ، ويتجلد حين الهجر مترجيا الوصل ،

وبين هذا وذاك يتوسل بشتى الوسائل التي تدنيه من أمله وتيسر له الطريق الى ما ينشده • فهذا التروبادور برنارد يخبرنا انه متجلد صابر في انتظار تحقيق الامل المنشود • يقول برنارد :

لست مبتهجا ولا مسرورا ، بل انا اقاسي عذاب
الموت ، ولكني مع ذلك ، اتجلد على أمل ان
صبري لابد معقب فرجا(٥٥) •

وينصح جوسر بطل حكايته العاشق ترويلس ، قائلا له على لسان صديقه الوفي ووسيطه لدى الحبيبة باندر ، ينصحه ان يصبر لان الصبر يقود الى الظفر(٥٦) :

Let rashness then to reason make way here!
Men say, "To patience comes the victory,"

اترك الطيش وخذ بالحزم
واصبر ،
فمن صبر ظفر •

ويضع جوسر رسولا بين المحبين له من المزايا والصفات ما يجب توفره في من يقوم بمثل هذه المهام ، ذلك هو باندر • وفضيلة باندر هي موضع شك وريبة من قبل نقاد جوسر ، ولكن مزاياه الاخرى التي تجعل منه رسولا بين العشاق متفق عليها ، اذ انه سريع البديهة ، حافظ للاسرار ، مرح ، مخلص لصاحبه ، متجاوب معه الى حد ذرف الدموع قبله • انه شخص مثير للاعجاب طورا وللسخرية طورا اخر • لقد كان باندر عاملا مساعدا على تمهيد الطريق لاتصال العاشقين ، وتهيئة

(٥٥) Bernard, Op. Cit., 67.
(٥٦) Chaucer, Op. Cit., 235.

فرص اللقاء بينهما بعد ان كان ذلك في حكم المستحيل(٥٧) • يجعل الشاعر الانكليزي باندر يخف الى مساعدة ترويلس حالما يتعرف على سر حبه لكرسيدا ويطلع على ما هو فيه من الم وعذاب واشتياق ، فيعده خيرا ، ويخبره بانه سيعد خطة تنتهي الى سعادة الحبيبين وسعادته هو ثالثهما ايضا • يقول جوسر على لسان باندر(٥٨) •

Therefore I am and will be ready still
To help you in whatever way I can,
For what I do hereafter surely will
Give pleasure to you both; and all our plan
We can so closly hide that never a man
Shall be the wiser in the least degree,
And so in fact, we shall be glad all three.

ها انا ذا بين يديك
وقفت نفسي على خدمتك
وكل الذي افعله
سيجلب لكما معاً السعادة ،
وعلينا جميعنا بالكتمان
ليكون الحظ في جانبنا •

وانا اذ نحول ابصارنا الى الادب العربي ، نجد ما يماثل تلك المواقف والافكار • فالعاشق المعذب المحروم المسهد ، ليس بيائس • اذ ان المجنون يخبرنا ان بشاشات الامل تبعث اليه الحياة حين يقتله اليأس • يقول المجنون :

القى مـــن اليأس ثارات فتقتلني   وللرجـــاء بشاشـــات فتحييني

(٥٧) D. S. Brower, Chaucer, 99-100; See also, Lewis, Op. Cit., 190-191; Kirby, Op. Cit., 121-192.

(٥٨) Chaucer, Op. Cit., 38.

ويقول في مكان آخر مؤملا :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا[٥٩]

وجميل بن معمر يفني العمر انتظارا لليلة يبيتها بوادي القرى قريبا من بثينة ، وهو متفائل لعلمه الا مستحيل تحت الشمس . يقول جميل :

وافنيت عمري في انتظاري وعدها وابليت فيها الدهر وهو جديد
الا ليت شعري هل ابيتن ليلة بوادي القرى اني اذن لسعيد
وقد تلتقي الاشتات بعد تفرق وقد تدرك الغايات وهي بعيد[٦٠]

ويتناول ابن زيدون المعنى نفسه ، فيخبرنا بانه يتجمل حين ينفد صبره ، وانه ينتظر وصال الحبيبة متفائلا بنيل ما يظن انه مستحيل . يقول الشاعر :

ايها البدر الذي يملأ عيني من تأمل
حمل القلب تباريح التجني فتحمل
ليس لي صبر جميل غير اني أتجمل
ثم لا يأس ، فكم قد نيل أمر لم يؤمل[٦١]

ونحن اذ نقرأ ما ورد في تراثنا عن الوسطاء والرسل ، نعرف ان العشاق كانوا يتبادلون الرسائل ويعقدون المواعيد مع الحبيبات . واكثر ما يكون ذلك عن طريق خاتم المحب الذي يرسله الى الحبيبة مع أمتها او راعيها او راعيتها ، وتكون الرسالة احيانا مع صديق او صديقة او احد اقرباء الحبيب او الحبيبة . فكثير الشاعر صاحب جميل وراويته كان يقوم بدور الوساطة بين جميل وبثينة . وله قصة طريفة تدل على حذقه وحذره في ايصال رسائل صاحبه ، وتنبىء عن ذكاء بثينة ودقة

---

(٥٩) الشعر والشعراء ، ٢ : ٤٧٠ ، الاغاني ، ٢ : ٣١

(٦٠) ديوان جميل بثينة ، ٣١-٣٢ .

(٦١) ديوان ابن زيدون ، ٦٠ .

ادراكها ما يعنيه الرسول • ويجد القارىء ادناه تلك القصة كما وردت في كتاب الاغاني :

قال كثير : لقيني جميل مرة فسألني : من أين اقبلت ؟ قلت : من عند ابي الحبيبة – اعني بثينة • فقال : والى اين تمضي ؟ قلت . الى الحبيبة – اعني عزة • فقال : لابد من ان ترجع عودك على بدئك ، فستجد لي موعدا من بثينة • فقلت : عهدي بها الساعة ، وانا استحي ان ارجع ، فقال : لابد من ذلك • فقلت له : فمتى عهدك ببثينة ؟ فقال : لقيتها في اول الصيف ، وقد وقعت سحابة بأسفل وادي الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، وتحدثنا حتى غابت الشمس وافترقنا ، وما وجدت احدا آمنه فارسله اليها • فقلت له : فهل لك في ان آتي الحي فانزع بأبيات من شعر اذكر فيها هذه العلامة ان لم اقدر على الخلوة بها ؟ قال : ذلك الصواب • ثم خرج كثير حتى اناخ بدار بثينة فقال له ابوها : ما ردك ؟ قال : ثلاثة ابيات عرضت لي فأحببت ان اعرضها عليك ، قال هاتها ، قال كثير : فانشدته ، وبثينة تسمع :

فقلت لها – يا عز – أرسل صاحبي	اليك رسولا والموكل مرسل
بأن تجعلي بيني وبينك موعدا	وان تأمريني ما الذي فيه أفعل
واخر عهدي منك يوم لقيتني	باسفل وادي الدوم والثوب يغسل

قال كثير : فالتفتت بثينة الى جاريتها وقالت لها : أبغينا من الدومات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له ، فقلت : انا اعجل من ذلك • وراح الى جميل فأخبره ، فقال له جميل : الموعد الدومات • وخرج كثير وجميل حتى أتيا الدومات ، وجاءت بثينة ومن معها ، فما برحوا حتى برق الصبح ، فكان كثير يقول : ما رأيت مجلسا ط احسن من ذلك ، ولا مثل علم ضمير احدهما بضمير الاخر ، ما أدري ايهما كان افهم[٦٢] •

---

(٦٢) الاغاني ٧ : ١٥٣ – ١٥٤ ، الشعر والشعراء ، ٣٤٨ ، الزهرة ، ١١١ – ١١٢ •

ويذكر ابن حزم صفات الرسول في فصل افرده من كتابه واطلق عليه (باب السفير) فيقول : ان الرسول دليل عقل المحب ، وبيده حياته وموته وستره وفضيحته ، فينبغي ان يكون حاذقا يكتفي بالاشارة، ويقرطس عن الغائب ، ويحسن من ذات نفسه ، ويضع من عقله ما اعقله باعثه ، ويؤدي الى الذي ارسله كل ما يشاهده على وجهه ، كاتما للاسرار ، حافظا للعهد ، وفيا ، قنوعا وناصحا(٦٣) . ان فكرة السفير او الوسيط بين المحبين وصفات ذلك السفير كما هي واردة في تراثنا العربي لمشابهة كل الشبه لتلك الفكرة وملابساتها لدى الاوربيين وذلك كما هو واضح في الامثلة التي قدمناها من كلا الادبين اعلاه .

وحين تكون الامور قد سويت من قبل الرسول ، يتم لقاء مختلس بين العاشقين . وجمال هذا اللقاء وبهجة المحبين وغبطتهم ونشوتهم كلها امور يعجز اللسان والقلم عن وصفها كما يقول العشاق الذين حدثونا عن سعادتهم كما حدثونا عن شقائهم بالتفصيل والمبالغة . ان برنارد يغني من فرط هنائه ، ويخيل اليه ان سعادته بلقاء الحبيبة قد اضفت على الكون الوانا جديدة من الجمال ، وان نفسه تحلق في سماء كلها سعادة وغبطة ومجد . يقول التروبادور :

قلبي يفيض غبطة ، حتى ليخيل الي ان الاشياء
حولي كلها قد تغيرت ، فالثلج يبدو لي كزهور
بيض وحمر وصفر ، والريح والمطر يجلبان لي
السعادة قوافي سمت وتعالت ، ومجدي وصل الى
السماء ، قلبي يفيض غبطة وسرورا وحلاوة ،
فيريني الثلوج زهورا ، والجليد عشبا
اخضر(٦٤) .

---

(٦٣) طوق الحمامة ، ٣١ ــ ٣٢ .
(٦٤) Bernard, Op. Cit., 171.

ويعترف جوسر بعجزه وعجز كل حكماء العالم عن وصف نعيم الوصل وجنة اللقاء • يقول الشاعر(٦٥) •

This is no trifling thing that now I say,
'Tis something no man's wit can all comprise;
For each to other's will doth so obey
That all the joys which ancient clerks so wise
Have praised, counted as nothing in their eyes;
Their joy may not be written down in ink,
For it surpasses all that heart may think!

ليس بالأمر اليسير
ذلك الذي أصف ،
أمر لا يحده الذهن ،
اثنان وثالثهما الحب ،
النعيم الذي وصفه حكماؤنا الاوائل
لايساوي شيئاان قيس بهذا النعيم ،
سعادة الحب لا يفيها قلم وحبر
تفوق الوصف •

تلك نماذج من اقوال الاوربيين اذ يصفون غبطة المحبين وسعادة العشاق عند اللقاء • ويستطيع القارىء ان يجد في أدبنا العربي افكارا ومواقف مشابهة للفكر التي رأيناها أعلاه • حيث يقول جميل وهو يستعيد ذكريات اللقاء وبهجة الوصل :

فيا ليت شعري هـــل ابيتن ليلة   كليلتنا حتى يرى ســـاطع **الفجر**
تجود علينـــا بالحديث وتـــارة   تجود علينا بالرضاب من الثغر(٦٦)

---

(٦٥) Chaucer, 171.

(٦٦) ديوان جميل بثينة ، ٤٥ •

ويمضي جميل الليل مع الحبيبة ، يتحدثان ويرتشفان من كؤوس النعيم اصفاها ، حتى تتبين بثينة الصبح ، فترتاع ، وتقسم عليه ان يلقي نفسه تحت النضد ، فيفعل ، لا خوفا على نفسه ، بل حذر الفضيحة ، اذ ان بثينة تسأله ذلك قائلة : انما اسألك ذلك خوفا على نفسي من الفضيحة[٦٧] .

وغبطة اللقاء اذ تحيل الجليد عشبا وورداً والوانا بنظر التروبادور ، فان تلك الغبطة تفعل ما هو أعجب من ذلك واطرف وذلك في بيت من الشعر يصف قائله لحظة من لحظات السعادة :

تكاد يدي تندى اذا مـا لمستها وينبت في اطرافها الورق الخضر[٦٨]

ويحدثنا ابن زيدون عن طلاقـة العيش وصفاء المورد وطيب الجنى ، كل ذلك في عهد السرور ، عهد القرب . يقول الشاعر :

اذ جانب العيش طلـق من تألفنا ومورد اللهـو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصـون الانس دانية قطوفهـا فجنينـا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهـد الغرام فما كنتـم لارواحنا الا رياحينا[٦٩]

اما ابن حزم فيصف لنا ملذات اللقاء ومباهج الوصل ، ويقرنها بلذائذ الجنة لولا كونها أرضية ووقتية . فيقول في كتابـه (طـوق الحمامة) ما يلي :

> ومن وجوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيـع ومرتبة سرية ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ، بل هو الحياة المجددة والعيش السني ، والسـرور الدائم ، ورحمة من الله عظيمة . ولولا ان الدنيا

---

(٦٧) الاغاني ، ٧ : ١٦١ ـ ١٦٢ .
(٦٨) خزانة الادب ، ١ : ٥٥٣ تزيين الاسواق ، ٢ : ٧٩ .
(٦٩) ديوان ابن زيدون ، ٩٢ ـ ٩٥ .

دار ممر ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان
من المكاره ، لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء
الذي لا كدر فيه ، والفرح الذي لا شائبة فيه ولا
حزن معه ، وكمال الاماني ، ومنتهى الاراجي ،
ولقد جربت اللذات على تصـــرفها ، وادركت
الحظوظ على اختلافها ، فما الدنو من السلطان ،
ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا
العودة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف
من الموقع في النفس ، ما للوصل(٧٠) .

منغصات السعادة

ان السعادة التي ينعم بها المحبون ليست طويلة الامد ، وهي لا تخلو من منغصات كما قلنا . ذلك لان الحساد والوشـــاة يتربصون الفرص بالمحبين فيفرقون بينهم ويقطعون حبال الوصال ، الامر الذي يفرض الكتمان والسرية التامة على المحبين . يخبرنا برنارد ان الوشاة قد ابعدوه عن حبيبته ، ويعد بأن سيكون حذرا عنـد زيارتها وذلـك تفاديا لهؤلاء الوشاة وحفاظا على سمعة من يحب . يقول برنارد :

الوشاة المفترون ابعدوني عنك ، انهـم يراقبون
ويتجسسون ، لكنهم لا يعلمون اننا نلتقي بالفكر
دوما . سأراك سرا لئلا يفتضح الامر ، فأنا أخشى
الاساءة الى سمعتك(٧١) .

وجوسر يؤكد مبدأ الكتمان خوفا على سمعة الحبيبة ، ويقول ناصحا ترويلس على لسان باندر بوجوب المحافظة على السر ، والحذر

---

(٧٠) طوق الحمامة ، ٥٦ .

(٧١) Bernard, Op. Cit., 95.

من فلتات اللسان[٧٢] .

In every manner, keep her free from blame,
And always strive to save her honest name.

احفظها من الوشاة واللوم
وحاذر أن تشين سمعتها النقية .

وهو يوصي العاشق بحفظ لسانه ، فيقول :

This proverb, useful to the old and young,
The highest virtue is to hold your tongue.

انه المثل الذي يعرفه الجميع
اسكت ، فالسكوت من ذهب .

وحين يمر وقت اللقاء سريعا ، تنتبــه كرسيدا فتجد ان خيوط الفجر قد بدت ، وتحث ترويلس على مغادرتها خشية الفضيحة . يكتب جوسر ذلك على لسان كرسيدا كما يلي[٧٣] :

Life of my heart, my trust and my delight,
That I was born, alas, to such a woe!
For we must part with parting of the night.
'Tis time that thou must rise and hence must go,
Or I am lost, and ever shall be so!

ياحياة قلبي وثقتي ونعيمي
ليتني ما خلقت لمثل هذه الساعة
حان الفراق مع فراق الليل
غادر المكان والا فاني ضائعة .

ويتحدث الشاعر عن مباهج الحب ، ويخبرنا ان كل سرور على

(٧٢) Chaucer, Op. Cit., 120-121.
(٧٣) Ibid., 162.

هذه الارض هو سرور وقتي زائل • يقول في هذا المعنى(٧٤) :

But if he knows that joy is transitory,
Since joy in every worldly thing must flee,
This troubling thought diminshes the glory
Of earthly joy, and so in such degree,
Imperfect must be his felicity;
If loss of joy he fears a jot or tittle,
This proves that earthly joy is worth little.

نعيم الحب وقتي
ككل نعيم في هذه الدنيا
وعلمك انه زائل
يسيء اليه وينقص من جماله •

ثم يعود جوسر في مكان اخر فيشبه الحياة الدنيا بزهرة جميلة الا انها سرعان ما تذوي وتذروها الريح • يقول في ذلك(٧٥) :

And think this world is but a passing show,
Fading like blooms that all too breifly blow.

دنياك دنيا غرور	تذوي ذوي الزهور

ان المنغصات التي تشوب سعادة المحبين وغبطتهم ، كالوشاة والمفترين ووجوب الحذر منهم بالتكتم وحفظ السر ، من جهة ، وتقلب الدنيا وسرعة زوال نعيمها من جهة اخرى ، كل تلك المظاهر التي تميز دنيا المحبين في اوربا ، موجودة في دنيا المحبين كما صورها تراثنا العربي ، وقد رأينا موجز حكاية جميل وبثينة ، ولقاءهما المختلس الذي وضعت خيوط الفجر حدا له وذلك خوف الوشاة وحذر الرقيب •

(٧٤) Ibid., 140.
(٧٥) Ibid., 308.

ويخبرنا جميل عن هذا في ثلاثة ابيات يتحدث فيها عن الغبطة التي قلبها الواشون الى غصة ، كما يصم الدنيا ، وينعتها بانها دار غرور لا تدوم • يقول جميل :

وكنا جميعا قبـــل ان يظهر النوى ... بأنعـــم حالي غبطـــة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا ... بطـــون الهوى مقلـــوبة لظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام حبنا ... ولكنما الدنيا متـــاع غرور[٧٦]

ويستطرد جميل مؤكدا حفظه السر حتى الموت ، فيقول :

لو ان امرأ أخفى الهـــوى عن ضميره
لمت ولم يعلـــم بـــذاك ضميري
ولكن سالقى الله والنفس لـــم تبح
بســـرك والمستخبرون كثـــير[٧٧]

ويطلب كثير من عزة ان تعاهده على نبذ الوشاة ، كما يفعل هو ، فيقول :

فيا عز ان واش وشى بي عندكم ... فلا تكرميه ان تقولي له اهـــلا
كما لو وشى واش بـودك عندنا ... لقلنا تزحزح لا قريبـا ولا سهلا
فاهلا وسهلا بالذي شـد وصلنا ... ولا مرحبا بالقائل اصرم لها حبلا[٧٨]

وهو يؤكد حفظه السر وعدم البوح به للوشاة ، ويرجو الحبيبة ان تتريث فلا تقع في احابيل هؤلاء الوشاة • يقول كثير :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ... بليـــلى ولا ارســـلتهم برسيل
فان جـاءك الواشون عني بكذبة ... فروها ولـــم يأتوا لها بحويل
فـلا تعجلي يا ليـــل ان تتفهمي ... بنصح أتى الواشون أم بحبول[٧٩]

---

(٧٦) ديوان جميل بثينة ، ٦٠ •
(٧٧) نفس المصدر والقصيدة •
(٧٨) ديوان كثير عزة ، ٣٨٢ ـ ٣٨٣ •
(٧٩) نفس المصدر ، ١١٠ ـ ١١١ ؛ وانظر صفحة ٢١ من نفس المصدر حيث مقالة الدكتور احسان عباس حول قول كثير (ليلى) وهو يقصد حبيبته (عزة) •

ويوطن الشاعر نفسه حين فقده عزة لعلمه ان سعادة الحب وشقاءه كليهما زائلان • يقول كثير :

ولم يلق انســان من الحب ميعة   تعم ولا عميـــاء الا تجلت[٨٠]

ويحدثنا ابن ذريح عن سعي الوشاة وخيانة الزمان ، اذ كلاهما تسبب في فقده لبنى ، ومع ذلك فهو الفتى الجاد الكتوم • يقول ابن ذريح :

سعى الدهر والواشون بيني وبينها   فقطع حبل الوصل وهو وثيــق
واكتم اســرار الهــوى فأميتها   اذا بـــاح مزاح بهن بروق[٨١]

ويتراءى للمجنون ان الوشاة يطلبونه ويهتدون اليه حتى اذا بعدت داره عنهم :

ولــو كان واش باليمـــامة داره
وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا[٨٢]

ويلوم الهذلي الدهر الذي لم يستقر ولم يرتح حتى فرق بينه وبين الحبيبة : يقول :

عجبت لســعي الدهــر بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننــا سكن الدهر[٨٣]

ان الدهر والدنيا الغرور الزائلة ، بالاضافة الى العذال والوشاة والمفترين ، كل هؤلاء ينغصون على العشاق أوقات الوصال الحلــوة ويكدرون متعها ، ولذلك كانوا جميعهم موضع شــكوى المحبـين في التراثين العربي والاوربي ، لولاهم لكان وصل المحبوب هو الصــفاء

(٨٠) نفس المصدر ، ٩٧ •
(٨١) الاغاني ، ٨ : ٢٤٣ •
(٨٢) الشعر والشعراء ٢ : ٤٧٧ •
(٨٣) خزانة الادب ، ١ : ٥٣٣ •

الذي لا كدر فيه والفرح الذي لا شائبة تشوبه ، ولا حزن معه ، وهو كمال الاماني ومنتهى الرجاء ، لا يعدله خط ولا يفي بوصفه قلم او لسان . ومن الجدير بالملاحظة في هذا المجال ان العشاق الذين يؤكدون على التستر وحفظ اسرار حبهم ، قد غدوا حديث الاولين والاخرين بما قالوا هم انفسهم عن ذلك الحب .

فضائل العشاق ومزاياهم

ان الذي ذكرناه من شوق الرجل الى الحبيبة الجميلة ورغبته في لقائها ووصالها ، وبؤسه وسقمه وجنونه اذا هو حرم منها ، ثم تنعمه وتلذذه كلما حظي بها ، لكلها مظاهر تمثل استجابة الرجل للحب استجابة حسية دنيوية . الا ان الحب الذي نحن بصدده هنا ، ليس مقتصرا على الاستجابة الحسية الدنيوية ، كما ذكرنا سابقا . ذلك لان العاشق الذي عرفناه في كلا التراثين العربي والاوربي ، كان يستجيب للحب استجابة روحية تتمثل بسموه وتحليه بالفضيلة والخلق الكريم ، وبتحليق روحه في دنيا الخيال مبدعا خلاقا . ومن الطريف ان الجانب الروحي ماثل وموجود في التراثين جنبا الى جنب مع الاتجاه الجسدي ، مما أضفى على هذا الحب صفة التناقض التي تميزه كما اسلفنا . ان العاشق الذي يلح به الشوق الى لقاء الحبيبة ، وتقتله الرغبة في التمتع بوصالها ، هو نفس العاشق الصابر القنوع ، والراضي بأقل من القليل . فترويض النفس بقهر الشره والطمع فيها ، سمة يتسم بها المحبون الذين قرأنا اخبارهم واشعارهم ، الامر الذي جعل اندرياس يثبته كقاعدة اساسية من قواعد الحب ، فيقول محذرا العاشق :

تجنب الطمع كوباء مميت ، وعاقق ضده[٨٤] .

ان ترويض النفس وحملها على الرضى بالقليل ، يجعل من ذلك القليل

---

(٨٤) Andreas, Op. Cit., 81.

كثيرا بنظر العاشق ، اذ ان النظرة الواحدة تبعث من احاسيس الغبطة والبهجة ما يبعثه الوصل . يقول برنارد :

حين تسنح الفرصة فتوليني نظرة واحدة فقط ،
لا أعي الا وانا في غمرة سروري ، اهتز نشـوة وطربا(٨٥) .

وارنوت دي مارويل يكتفي بنظرة الى ارض الحبيبـة ، وبخيال شخصها الجميل النبيل يتأمله وهو بعيد عنها ، اذ يقول :

ادير عيني ، يا سيدتي النبيلة الى ارضك ، واتطلع
الى حيث تسكنين ، وحين لا استطيع القرب منك ،
اكتفي بخيالك يسـكن قلبي ، وبذكرى شخصك
الحلو اللطيف تملأ افكاري(٨٦) .

وترويلس ، كما يخبرنا جوسر ، لا يطلب من كرسيدا الا ان تتلطف عليه بنظرة عطف من عينيها الجميلتين وفي ذاك ما يكفي لجعله في خدمتها ورهن اشارتها . يضعها الشاعر الانكليزي كما يلي(٨٧) :

"Just what I have in mind, O sweetheart dear!"
Cried Troilus. "That thou so fair to see,
But with the beamings of thine eyes so clear
Sometimes wilt turn a kindly gaze on me,
And that, besides, to this thou wilt agree
That I in root and branch, and every way
In truth, may serve thee well from day to day.

كل الذي اود قوله ياحبيبتي .
انك انت المليحة الجميلة ،
وكل الذي ابغيه ياحبيبتي

---

(٨٥) Bernard, Op. Cit., 119.
(٨٦) Kirby, Op. Cit., 293.
(٨٧) Chaucer, Op. Cit., 115.

نظرة من عينك الساحرتين ،
فان اوليتني هذه النظرة
اكن قلبا ولسانا
خادمك اليوم ، والى الابد .

ويسأل العاشق الجوسري صاحبه ان يرافقه الى بيت الحبيبة بعد رحيلها ليمتع عينيه بالنظر الى الديار . يقول جوسر على لسان العاشق(٨٨) :

"For love of God," most plaintively he said,
"I cannot rest until I've visited
Her house, and though my eyes I cannot feast
On her, I can her palace see at least."

بحبك الله يا صديقي
دعني أطف بدارها ،
فلعل رؤية الدار
تخفف ما القى من حرق البعد .

وتخبرنا كتب التراث الاوربي خبر العاشق الذي يؤكد ان مجرد انعكاس منظر بيت الحبيبة في الهواء يزوده بقوة تحفزه على العيش وتملأ قلبه بمتع الحب الجميلة(٨٩) .

ان مثل هذه الفكر والآراء والمواقف التي رأيناها في الادب الاوربي كلها واردة في أدبنا العربي كما سنرى في الامثلة التالية . فاخبار جميل تكشف لنا ان هذا العاشق قد بلغ في الاكتفاء بالقليل مبلغا لم يتحدث عن مثله غيره من العرب والاوربيين . يقول جميل :

واني لراض من بثينة بالذي ... لو ابصره الواشي لقرت بلابله

(٨٨) Ibid., 261.
(٨٩) Andreas, 69.

بلا وبـألا اسـتطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قـد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي اواخره لا نلتقي واوائـله[٩٠]

ويتحدث قيس بن ذريح عما يغنيه عن وصل لبنى التي حرمت عليه ، فيذكر لقاء الروحين عبر النسائم ، وعند افول الشمس اذ يلفهما معا سكون الليل ، وحين يوحد بينهما هدوء الظهيرة ، فالعاشقان ليسا بمفترقين ما داما يعيشان على ارض واحدة ، ويتطلعان الى سماء واحدة . يقول ابن ذريح :

فان تك لبنى قد أتى دون قربها حجاب منيـع ما اليـه سبيل
فان نسيم الجـو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليـل في الحي تلتقي ونعـلم انا بالنهـار نقيل
وتجمعنـا الارض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول[٩١]

ويمر المجنون على ديار ليلى ، فيقبل الجدران ، حين يعز عليه تقبيل الحبيبة ، يقول مجنون ليلى :

امر عـلى الديار ديـار ليلى اقبل ذا الجـدار وذا الجدارا
وما حـب الديـار شـغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا[٩٢]

والعاشق العربي يذكر حبيبته فيعتريه لطيب ذكراها من الفرح والنشوة ما يعتري العصفور حين تبله قطرات الغيث بعد طول ظمأ في الصحراء . يقول الشاعر :

واني لتعروني لذكراك هـزة كما انتفض العصفور بلله القطر[٩٣]

اما ابن الاحنف فيرضى بما لا يرضي ، كصاحبه الذي سبقه جميل

---

(٩٠) ديوان جميل بثينة ، ٩٤ .
(٩١) الاغاني ، ٨ : ٢٣٩ .
(٩٢) خزانة الادب ، ٢ : ١٧٠ ـ ١٧٢ .
(٩٣) نفس المصدر ، ١ : ٥٥٣ .

ابن معمر ، وترتاح نفس ابن الاحنف حتى الى المواعيد المطولة ، اذ يقول :

واني ليرضيني الذي ليس بالرضا وتقنع نفسي بالمواعيد والمطل[٩٤]

وهو يستنشق النسائم تأتيه من ارض الحبيبة ، فيستشعر بردا وراحة ، اذ يقول :

إذا استقبلتني الريح من نحو أرضها تنشقتها حتى تـرق خياشمي[٩٥]

وابن زيدون يرضى من الحبيبة بالطيف الساري والذكرى العابرة ، ويبقى وفيا لها • يقول :

اولي وفاء وان لـــم تبذلي صلة فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا[٩٦]

ان رياضة النفس وكفها عن الشره والطمع لمما يرهف العاشـق ويجعله يهتز لخاطرة وينتشي لنسمة عابرة كما رأينا • وهناك ، بالاضافة الى هذه الفضيلة ، مكرمة اخرى يتصف بها عشاقنا والعشاق الاوربيون بعدهم ، وتلك هي فضيلة الاخلاص لحبيبة واحدة والوفاء لها والتفاني في سبيلها • ان هذه الفكرة واردة في كلا التراثين وملموسة في الاقوال والاشعار والاخبار التي وصلتنا بهذا الخصوص • فقد ورد في التراث الاوربي ما يفيد بان الوفاء لامرأة واحدة قاعدة اساسية من قواعـــد الحب • يقول اندرياس مخاطبا العاشق : احفظ نفسك عفيفا من أجل تلك التي تحبها[٩٧] • ويقول في مكان آخر : لا يستطيع المرء ان يربط بغرامين في آن واحد[٩٨] • ويخبرنا برنارد انه قاطع جميع النساء من

---

(٩٤) ديوان ابن الاحنف ، ٢٣٦ •

(٩٥) نفس المصدر ، ٢٧٢ •

(٩٦) ديوان ابن زيدون ، ٩٥ •

(٩٧) Andreas, Op. Cit., 81

(٩٨) Ibid., 184.

اجل المرأة التي يحبها ، وعاش مخلصا لها وحدها • يقول :

لقد قطعت مع جميع النساء من اجلهـا ، فمنها
وحدها يمكن ان اتلقى مباهجي(٩٩) •

ويؤكد الشاعر وفاءه اللامنتهي للحبيبة ، اذ انه ، كما يقول ، يحبها مادام حيا ، وسيرافقه حبها الى ما بعد موته :

هلا يخطف الموت ارواح هؤلاء الذين يتجنون
فيقولون ان حبي لـــك سيفارقني بعد مفارقتي
الحيـــــاة ولا يرافقني بعد ان اموت واوارى
التـراب ! (١٠٠) •

ويخبرنا بالازول انه مخلص لحبيبته اخلاصا يحمله على ان يفضل رفضها على كل ما يمكن ان يلقـــاه من قبــــول الاخريات • يقول التروبادور :

افضل رفضك اللطيف على جميـــع هبـــات
الاخريات ، اؤكد لك أنني لا أستبدل ـ لاءك ـ
بنعم كل السيدات(١٠١) •

ويؤكد ترويلس ، بطل جوسر العاشق ، انه ما حاد عن الاخلاص لكرسيدا منذ ان رآها لاول مرة ، وسيخلص لها حتى الموت • يكتب الشاعر بهذا المعنى ما يلي(١٠٢) •

"By all the Gods," cried Troilus, "above,
And all that dwell below this solid earth,
I've never swerved an instant in my love

(٩٩) Bernard, Op. Cit., 150.
(١٠٠) Ibid., 159.
(١٠١) Newcombe, Op. Cit., 81.
(١٠٢) Chaucer, Op. Cit., 238.

From that first moment when it had its birth,
Nor ever shall I hold thee at less worth;
I can but say, to you I'm ever bound,
And truth thereof will in the end be found."

بحق كل الالهة فوقنا
وكل الارواح تحت ارضنا ،
ما حدت عن عهد الهوى
ولن احيد ،
لقد كنت اسيرك
وسابقى كذلك •

ويبرهن العاشق في قصة جوسر ، ان وعده صحيح وثابت ، اذ انه لم يطلب بديلا عن حبيبته بعد غيابها ، ولم يجد ما ينسيه حبها أو يسليه عنها في كل نساء الارض ولهوها وملذاتها • يقول ترويلس لصديقه باندر الذي نصحه باستبدال حبيبته باخرى في محاولة لتخفيف آلامه[١٠٣] •

But when you say that others you can find
As fair as she, compare her not, I pray,
With any creature formed of human kind!
And Pander dear, I've only this to say
To your advice, and that is plainly, Nay!
And therefore I politely must request
That you will let these other ladies rest.

تقول : أحب سواها
جميلة مثلها •
يا صديقي ، بحقي عليك

(١٠٣) Ibid., 195.

هلا تركت نساء الارض وشأنهن
فما فيهن بديل
وليس لها مثيل .

واننا اذ نطالع تراثنا العربي نجد ان الاشعار والاخبار والحكايات تتحدث عن الوفاء ، الوفاء بالعهد عامة ، وبعهد الحب في تراث المحبين خاصة . فنحن نعلم ان ابن ذريح حين اشار عليه قومه بالزواج من امرأة تنسيه لبنى أجابهم قائلا ان نفسه قد عزفت عن كل شيء في الدنيا بعدها ، وابت الا التعلق بها والتطلع اليها . يقول ابن ذريح :

لقد خفت الا تقنع النفس بعدها بشيء من الدنيا وان كا ن مقنعا
وازجر عنها النفس اذ حيل دونها وتأبى اليها النفس الا تطلعا

ونعلم ان آراء قومه قد اتفقت مع آراء الطبيب على ان يأمروه بتصفح احياء العرب فلعل عينه ان تقع على امرأة تستميل عقله . واقسموا عليه ان يفعل ففعل . واتفق انه نزل بحي من فزارة فرأى جارية قد حسرت عن وجهها برقع خز ، وهي كالبدر حسنا وبهجة ، فسأل عن اسمها فقالت لبنى . فسقط مغشيا عليه ، فارتاعت الفتاة منه ونضحت وجهه بالماء وقالت : ان لم تكن قيسا فمجنون . فلما افاق استنسبته ، فاذا هو قيس بن ذريح ، فأقسمت عليه ان ينال من طعامها فتناول قليلا وركب . فجاء اخو الفتاة على أثره ، فأعلمته القصة ، فركب حتى استرده وأقسم ان يقيم عنده شهرا . وكان الفزاري يعجب به ويعرض عليه المصاهرة ، حتى لامته العرب وقالوا : نخشى ان يصير فعلك سنة . فيقول : دعوني ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام . وقيس يقول له : ان فيكم الكفاية ، ولكني في شغل لا ينتفع بي معه . فألح عليه حتى عقد له على اخته ودخل بها ، فاقام معها اياما لا تهش نفسه اليها ولا يكلمها ، ثم استأذن في الخروج الى أهله . وكان يصف حاله

بعد فراق حبيبته فيقول :

وانى وان ازمعت عنهـا تجلدا على العهد فيمـا بيننـا لمقيـم
الى الله اشكو فقد لبنى كما شكا الى الله فقـد الوالدين يتيـم

وهكذا نجد ان الحكاية تكشف عن وفـاء ابن ذريح لحبيبته الاولى لبنى وفاء لم تستطع الفتاة الحسناء الفزارية التي تحمل الاسم نفسه ان تنال منه • وعاد ابن ذريح منها بدائه القديم • وقـد ذكر ان الطبيب سأله : مذ كم هذه العلة بك ، ومذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت فقال :

تعلق روحي روحهـا قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهـد
فزاد كمـا زدنـا واصبح ناميا وليس اذا متنـا بمنفصم العقد
ولكنه باق عـلى كـل حالة وزائرنا في ظلمة القبر واللحد[١٠٤]

وتقول اخبار مجنون ليلى ان اهله اذ حاولوا اقناعه بالعدول عن ليلاه الى غيرها ، قال لهم ان لا دواء منها الا بها ، فهو كشارب الخمر لا يصحو الا ليسكر • يقول الشاعر :

تداويت من ليلى بليـلى من الهوى
كما يتداوى شارب الخمر بالخمر[١٠٥]

وعروة العذري يؤكد لنا وحدانية الحبيبة ، وعدم اشراكه في الحب منذ ان عرف الحب والى ما لا نهاية ، فهو يقول :

هواها هوى لم يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد[١٠٦]

واخبار جميل بن معمر تنبيء عن اخلاصه ووفائه لحب بثينة وعهدها حتى الموت • فقد ذكر ان نساء الحي مرة جعـلن يقرعنه وينصحنه

---

(١٠٤) الاغاني ، ٨ : ٢٣٥ وما بعده ، الزهرة ١٦٧ ، تزيين الاسواق ، ١ : ٥٣ وما بعده •
(١٠٥) ديوان مجنون ليلى ، ٩٢ •
(١٠٦) تزيين الاسواق ، ١ : ٣٩ •

بالانصراف عن بثينة الى غيرها ، فكان جميل يردهن معتذرا ان لا مكان في قلبه لغيرها . فيقول جميل :

فلرب عارضة علينا وصلها ... بالجد تخلطه بقول الهازل
فاجبتها بالرفق بعد تستر : ... حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو ان في قلبي كقدر قلامة ... فضلا وصلتك او اتتك رسائلي
ويقلن : انك قد رضيت بباطل ... منها فهل لك في اعتزال الباطل ؟
ولباطل ممن احب حديثه ... اشهى الي من البغيض الباذل
حاولنني لابت حبل وصالكم ... مني ولست وان جهدن بفاعل(١٠٧)

وكثير عزة ، يتناول المعنى نفسه ، فيؤكد انه باق على حبه عزة التي بغضت اليه نساء الارض جميعا ، وان عزة قد حلت من فؤاده منزلة لم تحل ، ولن يستطيع عنها سلوا . يقول كثير :

وما أنصفت اما النساء فبغضت
اليناً واما بالنوال فضنت
فلا يحسب الواشون ان صبابتي
بعزة كانت غمرة فتجلت
فوالله ثم الله لا حل بعدها
ولا قبلها من خلة حيث حلت
وما مر من يوم علي كيومها
وان عظمت ايام اخرى وجلت
وحلت بأعلى شاهق من فؤاده
فلا القلب يسلوها ولا النفس ملت(١٠٨)

ويذكر لنا ابن الاحنف ان وجه الحبيبة لم يغب عن قلبه منذ ان

---

(١٠٧) ديوان جميل بثينة ، ٨٦-٨٨ .

(١٠٨) ديوان كثير عزة ، ٩٦ - ١٠٢ .

رآها ، وانها ملء نفسه منذ ذلك الحين . يقول :

وما غاب عني وجهها مذ رأيتها
ولا مال بي عنها الى غيرها قلبي(١٠٩)

ويؤكد الشاعر اخلاصه للحبيبة في حالي رضاها وهجرها ، فيقول :

فؤادي وعيني حافظان لغيبها
على كل حال من رضاء ومن عتب(١١٠)

وحين نقرأ ابن زيدون نجده يفضل جور الحبيبة وهجرها على وصل غيرها من النساء ، اذ يقول :

لو كان قولك مت ما كان ردي لا
يا جائر الحكم افديه بمن عدلا(١١١)

وهو يعتنق الوفاء رأيا ودينا ، اذ يقول :

لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم   رأيا ولم تتقلد غيره دينا(١١٢)

ان الامثلة التي قدمناها اعلاه ، لتبين ان التراثين العربي والاوربي اللذين تحدثا في موضوع الحب ، يريان رجلا عاشقا صادق الحب ، عفاً قادرا على ضبط نزواته وقمع شهواته ، وهو مخلص وفيّ للمرأة التي يهواها ، يجلها حاضرة ، ويحترم ارادتها ، يحفظ غيبها ويكتم سرها ويبذل أغلى ما يملكه في سبيل رضاها . وفوق هذا كله ، يعرف ما يقوله لها ويحسن هذا القول . ان العاشق ، كما يريه التراثان ، هو رجل لا يستطيع الرجل العادي ان يكونه ، فهو انسان اصطفاه الحب ، وجمله بالشهامة والخلق النبيل والمروءة لكونه اهلا لذلك . فقلبه شاعري مرهف خلق لكي يستجيب للحب . فينصهر بناره المقدسة ، ويشع

(١٠٩) ديوان العباس بن الاحنف ، ٤٢ .
(١١٠) نفس المصدر ، ٤٦ .
(١١١) ديوان ابن زيدون ١٦٤ .
(١١٢) نفس المصدر ، ٩١ .

نورا سماويا يعجز ذوو القلوب الغليظة عن ادراك فحواه ، ذلك الاشعاع السماوي الخالد على الايام يتمثل بالشعر الذي غناه المحبون في اوربا وفي دنيا العرب والذي مازالت تغنيه الاجيال بعد الاجيال •
وحين نبدأ بالتروبادورز نجد انهم كلهم شعراء خلفوا تراثا اقتفاه شعراء الحب في معظم اقطار اوربا بما فيها انكلترا ، حتى ان الباحثين في الادب الانكليزي في وقتنا الحاضر يعتقدون ان الذي يحاول أن يكتب في تاريخ الشعر الانكليزي لابد له ان يتخذ من شعر التروبادورز منطلقا له ، والا بقي بحثه غير مكتمل(١١٣) • لقد خلد التروبادورز لانهم غنوا وغنوا ، لانهم احبوا بصدق ، ولانهم خلقوا لكي يحبوا ولكي يغنوا • يقول لنا برنارد ان الاغنية الصادقة لا يمكن ان تنبعث الا من قلب يعمره حب صادق :

لا جدوى في غنــاء لا ينبعث من القلب ، ولا
يكون القلب ينبوع غناء ما لــم يرهفه الحب
الصادق(١١٤) •

وبالازول يغني ما دام يعرف ان اغانيه ستبهج حبيبته ماريا الجميلة ، وهو يبعث اليها قصيدته قائلا :

ايتها الاغنية ، قولي لحبيبتي الجميلة ماريا ،
اني سأغنيها مادمت أعرف أنأغاني مصدر سرور
ونشوة لها(١١٥) •

وبطل جوسر ، يهرع الى غرفته حالما يشعر بسهام الحب تنفذ الى قلبه ، فيجلس فيها وحيدا يناجي الحب والحبيبة بقصيدة • يقــول جوسر(١١٦) •

---

(١١٣) Chaytor, The Troubadours and England, 135.
(١١٤) Bernard, Op. Cit., 81.
(١١٥) Newcombe, Op. Cit., 84.
(١١٦) Chaucer, Op. Cit., 16.

Yet more than this — he gave much careful thought
On what to speak and when he should hold in,
And plans for leading her to love he sought,
And thought a poem straight he would begin
Upon his love, as aid her love to win.

قلب الرأي في الذي سيقوله ،
واى طريق سيسلك !
فوجد الشعر
أقصر طريق الى قلوب العذارى •

وبعد رحيل كرسيدا الحبيبة ، ينصرف المحب الى نظم الشعر طلبا للعزاء ، ذلك لان الشعر هو الفيض او العطاء الذي يخفف بعض الشيء عن القلوب التي أثقلها الحزن ، يقول جوسر(١١٧) •

Some little joy he took in song to show
The reason for his grief, as best he might,
For heavy hearts when they in words o'erflow.
By such discharge may sometimes grow more light.

اغانيه خففت بعض ما يلقى ،
وكانت عزاء ،
فالقلوب التي يبهضها الأسى
تجد راحتها
حين تفيض (تفرز) شعراً •

ان مثل هذا الحب الذي يفجر ينابيع الشعر ، هــو حب يعمر القلوب المرهفة الرقيقة الكريمة ، وفيها ينمو ويزدهر ، يقول جوسر :

O love's Delight, thou goodly one and fair,
In gentle hearts abiding everywhere.

Ibid., 16. (١١٧)

ياعاطفة الحب النبيلة الطيبة
مقرك القلوب الكريمة الطيبة •

ويستطرد جوسر فيذكرنا بان الحب سبب الوجود ، وان القلوب التي تجهل الحب تجهل معنى الوجود وسر الحياة ، يقول الشاعر[118] :

All creatures in the world through love exist,
And lacking love, lack all that may persist.

الحب هو الحياة
ولا حياة لمن لا يحب •

واننا اذ نعود الى تراثنا العربي نجد فيه من الاقوال والاشعار والوقائع ما يماثل تلك التي قرأناها في تراث اوربا • ان ابن سينا ، في رسالته التي تحدثنا عنها سابقا ، ليقرن وجود الهويات بالعشق ، ويقول : ان الموجودات اما ان يكون وجودها بسبب عشق فيها ، واما ان يكون وجودها هو العشق بعينه[119] • ويروى عن الشعبي بيت من الشعر يذكر فيه ان الانسان انما يكون انسانا بالحب ، والبيت هو :

اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فانت وعير في الفلاة سواء[120]

كما يروى عن ابن معاذ بيت من الشعر ينفي به وجود الخير من دنيا خالية من المحبة • يقول[121] :

ولا خير في الدنيا اذا انت لم تزر حبيبا ولم يطرب اليك حبيب

ويقرن العرب الحب برقة الطبائع وتآلف الارواح • فيذكر صاحب

---

(١١٨) Ibid., 111.
(١١٩) رسائل ابن سينا ، ٥ •
(١٢٠) تزيين الاسواق ، ١ : ١٢ •
(١٢١) نفس المصدر ، ١ : ١٣ •

كتاب الزهرة ان الحب شيء يختص به قوم برقة طبائعهم وتآلف ارواحهم ، فمن كان مثلهم يعذرهم ، ومن خرج عن حدهم هان قوله[122] . وذكر ان ابن نوفل سئل مرة :

ـ هل يسلم احد من العشق ؟

فقال :

ـ نعم ، الجلف الجافي الذي ليس له فضل ولا عنده فهم ، اما من في طبعه أدنى ظرف ، أو معه دماثة أهل الحجاز ، وظرف أهل العراق فهيهات[123] .

ان قلوب العشاق ، كما يقول العرب ، رقيقة كانها قلوب طير تنماث كما ينماث الملح في الماء ، وهم ينظرون الى جمال محاجر أعين لا ينظر اليها الاخرون[124] ، ويستجيبون للجمال استجابة لا يقدر عليها غيرهم . واستجابتهم للحب وسلوكهم حيال المرأة ، وتعبيرهم عن مشاعرهم ، كلها أمور يفضلون بها الناس ويتفاخرون بها في ما بينهم . فقد ذكر خبر اجتماع الفرزدق وجميل بن معمر وجرير ونصيب وكثير في موسم من المواسم ، ومضوا الى منزل سكينة بنت الحسين ، وهي المرأة المرموقة على المستويين الاجتماعي والادبي انذاك ، وانشدوها بعض ما قالوا في المرأة والحب ، ففضلت قول جميل :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... واي جهاد غيرهن اريد
لكل حديث عندهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد
وافضل أيامي وأفضل مشهدي ... اذا هيج بي يوما وهن قعود

قالت سكينة : أغزلت ، وكرمت ، وعففت ، فانت الذي جعلت قتيلنا شهيدا ، وحديثنا بشاشة ، وافضل ايامك يوم تنوب فيه عنا

---

(١٢٢) روضة المحبين ، ١٩٣ ، ديوان المعاني ، ١٣٨ .
(١٢٣) نهاية الأرب ، ٢ : ١٣٩ .
(١٢٤) الشعر والشعراء ، ١ : ٣٤٦ .

وتدافع . ولم تتعد ذلك الى قبيح ، خذ الألف درهم هذه ، وابسط لنا العذر ، وانت اشعرهم . وقد ذكر انها استقبحت قول جرير حيث يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيـــارة فارجعي بسلام

قالت له سكينة : فما أحسنت ولا اجملت ، ولا صنعت صنيـع الحر الكريم ، لا ستر الله عليك كما هتكت سترك وسترها ، ما أنت بكلف ولا شريف حين رددتها بعد هدوء العين ، وقد تجشمت هـول الليل[١٢٥] .

ان الحكاية اعلاه لتشير ان المرأة الحكم قد فضلت جميلا شاعرا ومحبا في وقت واحد . والشعر والحب صنوان متلازمان . ويذكر ان العرب ترى ان العشق هو الباعث على الغزل والنسيب[١٢٦] . ويخبرنا الشعراء العشاق انفسهم عما يؤيد هذا القول ، اذ يذكر لنا جميل انه انما ينظم الشعر من اجل ارضاء الحبيبة ، وهو يستوحيها المزيد منـه يقول جميل :

وقـــد قلت في حبي لكـــم وصبابتي
محاسن شـــعر ذكرهـــن يطـــول
فان لـــم يكن قولي رضـــاك فعلمي
هبوب الصبا ـ يا بثن ـ كيف اقول[١٢٧]

ويقول جميل في موضع اخر ان الشعر يأبى ان يطاوعه الا في حب بثينة ، يضعها جميل كما يلي :

---

(١٢٥) مصارع العشاق ، ٢ : ٧٩ـ٨٢ .
(١٢٦) نهاية الأرب للنويري ، ٢ : ١٢٥ .
(١٢٧) ديوان جميل بثينة ، ٨٣ .

اذا ما نظمت الشعر في غـير ذكرهـا
أبى - وابيها - ان يطاوعني شعري[128]

ويخبرنا كثير بان شعره الذي اضحى وسيلة يتقرب بها العشاق الى حبيباتهم ، هذا الشعر عجز عن ان يجد سبيله الى قلب عزة ، يضعها كثير كما يلي :

ويدرك غـيري عنـد غـيرك حظه
بشعري ويعييني بـه مـا احـاوله[129]

وكثير يعترف بان حبه عزة قد رفع ذكره وحسن شعره . فقد قيل ان امرأة لقيته في بعض الطريق ، فقالت : أأنت كثير ؟ قال : نعم . قالت : والله لقد سفل الله بك اذ جعلك لا تعرف الا بامرأة . قال كثير : ما سفل الله بي ، ولكن رفع بها ذكري ، واستنار بها أمري ، واستحكم بها شعري[130] .

اما مجنون ليلى فهو يهرع الى قول الشعر طلبا للعزاء والراحة مما الم به من تباريح الحب ، يقول :

فما اشرف الايفـاع الا صبابة ولا انشد الاشعار الا تداويا[131]

وهو ان يحرم من ليلى ، يجد العزاء في الدموع وفي القوافي ، يقول مجنون ليلى :

فان تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلم تمنعوا عني البكا والقوافيا[132]

وهكذا نجد ان الذي ذكر عن مزايا العشاق وسلوكهم ومواقفهم متشابه في كلا التراثين العربي والاوربي . فالعاشق منهـم يستجيب للحب استجابة ذات طبيعة متناقضة ، يحب المرأة حبا حسيا اذ ينجذب

---

(١٢٨) ديوان جميل بثينة ، ٤٥ .
(١٢٩) ديوان كثير عزة ، ٤٢١ .
(١٣٠) الشعر والشعراء ، ١ : ٤١٥ .
(١٣١) ديوان مجنون ليلى ، ٢٩٢ .
(١٣٢) نفس المصدر ، ٢٩٣ .

نحو جمالها الجسدي ويرغب في التمتع بهذا الجمال رغبة تجعله يسعد ويغتبط عند اللقاء ، ويكتئب ويتألم ويفقد عقله عند الفراق والحرمان والعشاق في الوقت نفسه قادرون على رياضة شهواتهم وقمع نزواتهم ، مما يسمو بحبهم ويمنح المجنون سمة الموهوب الملهم الذي يرتل آياته الاخرون . لقد سمي سلوك التروبادورز ازاء حبيباتهم ظرفا أو مروءة Courtesy او gentleness . وخير ما يباري معنى هذين اللفظين في تراثنا هو القول الذي ورد على لسان السيدة سكينة حين فضلت ابن معمر عاشقا وشاعرا ، فقالت له : « أغزلت وكرمت وعففت ، فانت الذي جعلت قتيلنا شهيدا ، وحديثنا بشاشة ، وافضل ايامك يوم تنوب فيه عنا وتدافع ولم تتعد ذلك الى قبيح » . وقد ذكرنا هـــذه الحكاية سابقا .

● ▣ ●

الخلاصة

لقد تناولنا ثلاث نقاط هامة في دراستنا المقارنة في هذا الكتاب ، محاولين فيها اثبات النظرية القائلة ان أدب الحب في التراث الاوربي متأثر بالادب العربي • ويجد القارىء ادناه ملخص ما ورد في الكتاب تحت تلك النقاط :

١ - التشابه القائم بين أدب الحب في كلا التراثين العربي والاوربي ، حيث تكشف الاشعار والاخبار والحكايات الواردة في الادبين ان الحب بين الرجل والمرأة كان حبا متميزا بكونه ذا طبيعة متناقضة ، اذ انه حسي جسدي من جهة ، وروحي يجمل المحبين بالظرف ويحليهم بالمروءة ، من جهة اخرى • ان ذلك الحب الذي تحدث عنه التراثان هو عاطفة يوقظها في الرجل جمال المرأة الجسدي ، فتتملكه رغبة وشوق للاتحاد مع الحبيبة • هذه العاطفة والرغبة والشوق ، كما يقول التراثان ، تجد طريقها الى القلوب الرقيقة الكريمة فتصهرها وتجعلها تفيض ظرفا ومروءة وشعرا • ان طبيعة الحب المتناقضة تلك تنعكس على المرأة المعشوقة والرجل العاشق كليهما • فالمعشوقة ذات طبيعة متناقضة : هي امرأة حقيقية تتصف بالجمال الجسدي وحسن الصفات مع تمنع ودلال ، وهي في الوقت ذاته ذات صفات فوق صفات البشر ، اذ انها كما يقول التراثان - قادرة على ان تهب وتسلب ، تأمر وتنهى ، تسعد وتشقي ، تمرض وتشفي ، واخيرا فانها قادرة على ان تحيي وتميت • اما استجابة الرجل لهذا الحب فهي ذات جانبين كذلك • جانب حسي يتسم بالرغبة الجسدية التي تسبب للعاشق الحزن والسهر والدموع والسقم ، وتدفعه الى الجنون • الا انها في الوقت نفسه استجابة نبيلة تدعوه الى التأمل الروحي والانجذاب الصوفي ، فيغني ليلاه أغاني ترددها الاجيال • تلك هي وجوه التشابه والتلاقي

التي عكسها كل من التراثين العربي والاوربي في موضوع الحب .

٢ ـ سبق الادب العربي . فالآراء والافكار والاتجاهات التي يعكسها أدب الحب عندنا موجودة كجزء اساس من تراثنا منذ القرن السابع للميلاد ، اذ ان جميل بن معمر الذي يمثل هذا الاتجاه احسن تمثيل كان قد عاش في ذلك القرن (ت ٧٠١م) . في حين ان مثل تلك الآراء والاتجاهات غريبة كل الغربة بالنسبة للتراث الاوربي حتى القرن الحادي عشر للميلاد ، حيث عاش اول تروبادور في ذلك القرن (وليم التاسع ت ١١٢٦) .

٣ ـ وجود اتصال بين العرب واوربا انذاك . فقد بقي العرب على الاراضي الاوربية مدة ثمانية قرون ابتداء من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر للميلاد . وكان الاوربيون من جهة اخرى ، ذاهبين الى البلاد العربية وعائدين منها في حملاتهم الصليبية خلال اربعة قرون (١٠٩٦ ـ ١٤٥٠) . وكانت اللغة العربية واشعارها واغانيها شائعة في الاجزاء الجنوبية والغربية من اوربا ، كما كانت الاعمال والمؤلفات العربية في العلوم والفلسفة معروفة ومتداولة في جميع اوربا من خلال الترجمة . وقد ترك كل ذلك آثارا واضحة على جميع نواحي الحياة الاوربية ، كالسلاح والعمران والعلوم والفلسفة والموسيقى وغيرها .

ان الحقائق الثلاث المذكورة أعلاه ، وهي التشابه بين التراثين العربي والاوربي فيما يخص الحب ، وسبق التراث العربي في هذا الموضوع ، مع وجود احتكاك واتصال بين العرب واوربا آنذاك ، كل ذلك يجعلنا نرجح كون الفكر الاوربي متأثرا بالفكر العربي في هذا المجال تأثره في المجالات الاخرى . وبذلك تكون النظرية القائلة ان مدرسة التروبادورز التي اجتاحت العالم الاوربي منذ القرن الحادي عشر ، متأثرة بمدرسة العذريين هي نظرية صحيحة اذ ان لها ما يسندها ادبيا وتاريخيا .

المصادر

المصادر العربية

الاغاني (١ـ٢١) لابي الفرج الاصفهاني (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٥)
الامالي (١ـ٢) لابي علي القالي (القاهرة ، ١٩٢٦) .
تاريخ الادب العربي ـ العصر الاسلامي ، لشوقي ضيف (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣) .
تاريخ الادب الاندلسي : عصر سيادة قرطبة ، لاحسان عباس (بيروت ١٩٦٢) .
تاريخ الادب الاندلسي : عصر الطوائف لاحسان عباس (بيروت١٩٦٢)
تزيين الاسواق (١ـ٢) للانطاكي (مصر ، ١٨٨٧) .
الحب العذري للجواري (دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٤٧) .
الحب والحب العذري لصادق العظم (بيروت ، ١٩٦٨) .
حديث الاربعاء (١ـ٢) لطه حسين (مصر ، ١٩٢٥) .
خزانة الادب (١ـ٤) للبغدادي (بولاق ، ١٢٩٩)
ديوان جميل بثينة (بيروت ، ١٩٦٨) .
ديوان مجنون ليلى (تحقيق فراج ، القاهرة) .
ديوان كثير عزة (تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧١) .
ديوان العباس بن الاحنف (بيروت ، ١٩٦٥)
ديوان ابن زيدون (مكتبة النهضة ، بغداد) .
ديوان ذي الرمة (كمبردج ، ١٩١٩) .
ديوان المعاني للعسكري (مطبعة القدوس ، القاهرة) .
ديوان المتنبي (تحقيق البرقوقي ، ١٩٣٨) .
روضة المحبين ونزهة العشاق لابن الجوزية (كتب الملك سعود) .
الزهرة لابى داود الاصفهاني (بيروت ، ١٩٣٢) .
الشعر والشعراء (١ـ٢) لابن قتيبة (بيروت ، ١٩٦٤) .
طوق الحمامة في الالفة والالاف لابن حزم الاندلسي (دمشق ، ١٣٤٩).
العمدة (١ـ٢) لابن رشين القيرواني (بيروت ، ١٩٧٢) .
عيون الاخبار (١ـ٤) لابن قتيبة (دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠) .
الكامل في التاريخ لابن الاثير (بيروت ، ١٩٦٥) .
مصارع العشاق للسراج (بيروت ، ١٩٥٨) .
مشارق انوار القلوب لابن الدباغ (بيروت ، ١٩٥٩)
معجم البلدان (١ـ٦) لياقوت الحموي (بيروت ، ١٩٥٧) .
المغرب في حلى المغرب (١ـ٢) لابن سعيد (تحقيق شوقي ضيف ، ١٩٥٣)
نهاية الأرب (١ـ١٨) للنويري (مصر ، ١٩٢٥) .

Courtly.

Andreas Capellanus. **The Art of Courtly Love,** trans. and ed., by John Parry. New York: Columbia University Press, 1941.

Chaytor, H. J. **The Troubadours.** Cambridge University Press, 1912.

———, **The Troubadours and England.** Cambridge: Cambridge University Press, 1923.

———, **The Troubadours of Dante.** Oxford: Clarendon Press, n.d.

Denomy, Alexander J. **The Heresy of Courtly Love.** New York: The Declan X. McMullen Company, Inc., 1947.

———, "Concerning the Accessibility of Arabic Influence to the Earliest Provencal Troubadours." **Medieval Studies,** XV (1953), 147-58.

———, "The De Amore of Andreas Capellanus and the Condemnation of 1277. **Medieval Studies, VIII (1946), 107-49.**

——— "Fin Amors: The Pure Love of the Troubadours, Its Amorality and Possible Sources." **Medieval Studies,** VII (1945), 139-207.

———, "An Inquiry into the Origins of Courtly Love." **Medieval Studies,** VI (1944), 175-260.

———, "Jois Among the Early Troubadours: Its Meaning and Possible Sources." **Medieval Studies,** XIII (1951), 177-217.

———, "Courtly Love and Courtliness." **Speculum,** XXVIII (1953), 44-63.

Grunebaum, Gustave. "Auicenna's Risala and Courtly Love." **Journal of Near Eastern Studies,** XI (1952), 233-38.

Kastner, L. E. "Marcabru and Ceramon." **Modern Language Notes,** XXVI (1931), 91.

Newman, F. X. **The Meaning of Courtly Love.** Albany: State University of New York Press, 1968.

Nichols, Stephen G. Ed. **The Songs of Bernard De Ventadorn.** Chapel Hill: The University of North Carolina Press, 1962.

Newcombe, Terence. "The Troubadour Berenger De Palazol: A

Critical edition of his Poems." **Nottingham Medieval Studies, XV** (1971), 54-85.

Neilson, William A. **The Origins and Sources of the (Pseudo Chaucerian) Court of Love.** Boston: Gin and Company, 1899.

Silverstein, T. "Andreas, Plato, and the Arabs: Remarks on some Recent Accounts of Courtly Love." **Modern Philology,** XLVII (1949-50), 117-26.

Sutherland, D. R. "The Language of the Troubadours and the Problem of Origins." **French Studies,** X (1956), 199-215.

General.

Bayley, John. **The Character of Love.** New York: Collier Books, 1963.

Brodwin, Leonora Leet. **Elizabethan Love Tragedy.** London: University of London Press, 1972.

Farmer, Henry G. **Historical Facts for the Arabian Musical Influence.** London: The New Temple Press, n.d.

———, **Al-Farabi's Arabic -Latin writings on Music.** New York — London — Frankfurt: Hinrischen Edition, Ltd., 1965.

Hume Martin. **Spanish Influence on English Literature.** London: Eveleigh Nash, 1905.

———, **The Spanish People: Their Origins, Growth and Influence.** London: William Heinemann, 1901.

Ibn Hasm, Abu Muhammad Ali. **The Ring of the Dove,** trans. A. J. Arberry. London: Luface and Company, Ltd., 1953.

———, **The Dove's Neck Ring,** trans., A. R. Nykl. Paris: Geuther, 1931.

Ibn Sina, Abu Ali. "A Treatise on Love," trans., Emil Fachenhein. **Medieval Studies,** VII (1954), 208-28.

Knowles, David., **The Evolution of Medieval Thought,** n.p.: Longmans, 1962.

Kar, G. **Thoughts on Medieval Lyric.** Oxford: Basil Blackwell, 1933.

Kelly, James Fitzmaurice. **A History of Spanish Literature.** London: William Heinemann, n.d.

Kinany, A. Kh., **The Development of Gazal in Arabic Literature.** Damascus: The Syrian University House, 1950.

Lewis, C. S. **The Allegory of Love.** London: Oxford University Press, 1953.

Lucka, E. E. **Eros: The Development of the Sex Relation Through the Ages.** New York, 1915.

Mandelstam, Osip. "Talking about Dante," trans. Brown Clarence and Robert Hughes. **Delos,** (1971), 65-106.

Nykl, A. R. **Hispano-Arabic Poetry and its Relations with the Old Provencal Troubadours.** Baltimore: J. H. Fust, 1948.

Nicholson, A. R. **A Literary History of the Arabs.** London: T. Fisher Pound, Adelphi Terrace, 1906.

Rougement, Denis de. **Passion and Society,** trans. M. Belgion, Faber and Faber, 1956.

Singer, Irving. **The Nature of Love, Plato to Luther.** New York: Random House, 1956.

Thorndike, Lynn. **History of Magic and Experimental Science During the First Thirteen Centuries of Our Era.** London: The Macmillan Company, 1923.

Valency, Maurice. **In Praise of Love.** New York: The Macmillan Company, 1958.

Wilson, Edward and Arthur King. "History of a Refrain." **Modern Language Notes,** LXXXV (1970), 138-40.

Chaucer Editions.

Cook, Daniel. **Troilus and Criseyde by Geoffrey Chaucer.** Garden City, New York: Anchor Books, 1966.

Root, Robert K. **The Book of Troilus and Criseyde.** Princeton: Princeton University Press, 1926.

Skeat, W. W. **The Complete Works of Geoffrey Chaucer.** 7 vols. Oxford: Clarendon Press, 894-97.

General Criticism.

Brewer, D. S. **Chaucer,** London: Longmans, 1953.

———, "Love and Marriage in Chaucer's Poetry, **Modern Language Review,** XLIX (1954), 461-64.

Bethurum, Dorothy. "Chaucer's Point of View as Narrator in the Love Poems." **PMLA,** LXXIV (1959), 511-20.

Cordon, Ida L. **The Double Sorrow of Troilus: A Study of Ambiguities in Troilus and Criseyde.** Oxford: Clarendon Press, 1970.

Dodd, William. **Courtly Love in Chaucer and Gower.** Gloucester, Mass: P. Smith, 1959.

Denomy, Alexander J. "The Two Moralities of Chaucer's Troilus and Criseyde," In Schoek and Taylor, 147-59.

Gaylord, Alan T. "Gentilesse in Chaucer's Troilus." **Studies in Philology,** LXI (1964), 31-47.

Kirby, Thomas A. **Chaucer's Troilus: A Study in Courtly Love.** Gloucester, Mass: Peter Smith, 1958.

Kean, P. M. "Chaucer's Dealings with a Stanza of Il Filostrato and the Epilogue of Troilus and Criseyde." **Medium Aevum,** XXXIII (1964), 36-48.

Kittredge, G. L. "Chaucer and Some of His Friends." **Modern Philology,** I (1903), 1-19.

Lewis, C. S. "What Chaucer Really Did to Il Filostrato." In Schoeck and Taylor, ed., 16-33.

Meech, S. B. **Design in Chaucer's Trollus.** Syracuse: Syriacuse University Press, 1959.

Muscatine, Charles. **Chaucer and the French Tradition.** Berkeley: California University Press. 1959.

Root, R. K. **The Poetry of Chaucer: A Guide to its Study and Appreciation.** Gloucester, Mass: Peter Smith, 1957.

Robertson, D. W. **A Preface to Chaucer.** Princeton: Princeton University Press, 1962.

Schoeck, Richard, and Jerome Taylor, eds. **Chaucer Criticism: Troilus and Criseyde and the Minor Poems.** Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1961. Reprints Curry, Lewis, Patch, Robertson, et al.

Stearns, Marshall W. "A Note on Chaucer's Attitude toward Love." **Speculum,** XVII (1942), 570-74.

Tatlock, J.S. "The People in Chaucer's Troilus." **PMLA.** LVI (1944).

Wagenkrecht, F. ed. **Chaucer: Modern Essays in Criticism.** Oxford: Oxford University Press, 1959.

Young, Karl. "Chaucer's Troilus and Criseyde as Romance." **PMLA,** LIII (1938), 38-63.

المحتويات

تصميم الغلاف : **نضال الأغا**

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٤٥٩ لسنة ١٩٨٠

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر
١٩٨٠

« هذا الكتاب »

- وليم أوغليوم التاسع ، سركامون ، جاسكون ، ماركابرو ، جوفري رودال .. شعراء عشاق غنوا الحب اغاني لم تكن اوربا قد سمعت بمثلها كان ذلك لاول مرة في مقاطعة بروفنس الفرنسية .
- وقد عرف الشعراء الذين اوجدوا هذه المدرسة الشعرية بالتروبادورز وتعتبر اشعار برنارد دي فانتادور ، النموذج المكتمل لهذه المدرسة .
- ان لشعر التروبادور ، اهمية عظمى في تاريخ الادب الاوربي ، لما للاراء والافكار التي عبر عنها ، من اثر كبير في بنيان خلفية الادب الاوربي طيلة القرون التسعة الماضية . كما ان اشعارهم تشكل الحجر الاساس في اصول اللباقة والاداب التي تعرفها اوربا في الوقت الحاضر .
- والكتاب دراسة مقارنة لاثبات ودعم النظرية القائلة « ان ادب الحب في التراث الاوربي متأثر بالادب العربي » وذلك من خلال عرض اوجه التشابه والتلاقي بين اراء التروبادور وآراء الشعراء العرب في الحب العذري ، وان مزايا العشاق وسلوكهم ومواقفهم متشابهة في كلا التراثين العربي والاوربي .

السعر ٣٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة . بغداد

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان